

الفصل الثالث

هديه في الحل والعفو ﷺ

حلمه وعفوه ﷺ يتناسبان مع كمال مرتبته :

لما كانت الأخلاق متكاملة ، كان كل خلق يقوى بغيره من الأخلاق لارتباط الكيان الخلقي ببعضه وشدة تماسكه ، فالعفو يحتاج إلى الرحمة وكلما اتسعت الرحمة اتسع العفو بقدرها ، وإن مرتبته صلوات الله وسلامه عليه : مرتبة الرسالة الخاتمة العامة الشاملة ؛ تعطي أنه أرحم الخلق بعباد الله عز وجل وقد بين التنزيل الحكيم علو هذه المرتبة التي تتفجر من قوله تعالى ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ . يقول الحافظ ابن أبي جمرة ^(١) : " وهذا لفظ عام فلا يقصر على جهة واحدة ولا معنى واحد بل يبقى على عمومته لأن ذلك هو اللائق بجلاله سبحانه " . وإذا كان صلوات الله وسلامه عليه رحمة للعالمين فقد وضع الحق عز وجل فيه من الرحمة ما يتناسب مع هذه المرتبة التي لا تجوز إلا له ولا تصدر إلا عنه ﷺ . وقد عبر الإمام شمس الدين محمد بن أبي الحسن البكري عن هذا المعنى بقوله :

ما أرسل الرحمن أو يرسل	من رحمة تصعد أو تنزل
في ملكوت الله أو ملكه	من كل ما يختص أو يشمل
إلا وطه المصطفى عبده	نبيه مختاره المرسل
واسطة فيها وأصل لها	يفهم هذا كل من يعقل

(١) بهجة النفوس : ج ٤ ص ٢٥٥ .

وحسبك من كمال رحمته وعفوه صلوات الله وسلامه عليه ، حرصه على هداية من لم يأل جهداً في إذايته بل ومحاولة الفتك به وبأصحابه رضوان الله تعالى عليهم . وكان المنافقون يؤذونه ﷺ إذا غاب ، ويتملقونه إذا حضر ، وهو يعرف هذا المعرفة التامة ومع هذا فقد كانوا كلما غالوا في نفاقهم يفتح لهم باباً من أبواب الرحمة لعلهم يرجعون .

ومع أن أصحابه رضوان الله تعالى عليهم كانوا في الحلم مراتب ، ومنهم من بلغ المرتبة التي لا يبلغها أشد الناس حلماً بعد النبيين والمرسلين ، إلا أن الإساءة البالغة والأذى الشديد المستمر دعاهم إلى أن يقولوا لرسول الله ﷺ " لو دعوت عليهم ؟ " فيقول صلوات الله وسلامه عليه " إني لم أبعث لعانا ولكن بعثت داعياً ورحمة " فينبههم ﷺ إلى الاهتداء بهديه وطلب الهداية للناس مهما أتوا من صنوف الإيذاء . ولم يقتصر ﷺ على السكوت عنهم ، بل إنه يعفو ويصفح عما بدر منهم ويعتذر عنهم بجهلهم ويدعو لهم بالهداية ويقول " اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون " وما زال يعالجهم ﷺ حتى كان منهم الصديقون والأبرار الذين بذلوا النفس والنفس لهداية الخلق إلى الله عز وجل .

وكمال العفو أيضاً يتسع باتساع العلم والمعرفة بالله عز وجل ، فما بالك إذن بعفو من أرسله الله تعالى ليبين للناس جميعاً ما اشتمل عليه التنزيل من علوم . حاول فلاسفة الأخلاق وعلماء النفس والتربية وضع قواعد للسلوك الإنساني فمنهم من طلبها في الغرائز ومنهم من طلبها في غريزة حب الذات أو الغريزة الجنسية ، ومنهم من رد السلوك إلى المنفعة ، ومنهم من رده إلى الضمير ومنهم من رده إلى المادة .. وضل هؤلاء جميعاً ولم يصلوا إلا إلى قواعد مشوهة تصلح لأن تكون أساساً للشر نفسه . وتابعهم بعض علماء العرب في آرائهم تقليداً لكل ما هو أجنبي ، وفاتهم بذلك دراسة الخلق المحمدي وهو

الأساس العلمي الوحيد لجميع مكارم الأخلاق ، كما قصرُوا في أداء هذه الأمانة للعالم وهم أولى الناس بتبليغها بدلا من التقصير فيها .

إن مكارم الأخلاق تتبع من حب الإنسان لله عز وجل ولا يذوق الإنسان الحب الصحيح لله تعالى إلا إذا عرفه المعرفة اللائقة به عز وجل . ولا يعرف الإنسان الخالق سبحانه إلا إذا آمن برسوله صلوات الله وسلامه عليهم .

ومن هذا الحب الصادق ينبع حب الإنسان للإنسان . هذا هو الحب الأساسي الثابت الذي لا يزول ، وهذا هو الحب الذي نبهنا إليه رسول الله ﷺ وأمرنا به ، وهذا هو الحب الذي يجعل الإنسان يستعذب كل سلوك يقتضيه الخلق الكريم . وإذا كان كمال العفو يتسع على قدر حب الإنسان لخالقه تعالى ، فلك أن تتأمل في كمال عفوه صلوات الله وسلامه عليه .

أشد الناس بلاء الأنبياء :

إن كمال العفو يحتاج إلى الصبر على الأذى ، فهو يتسع بقدر طاقة الإنسان على تحمل صنوف الأذية . ويجب أن تلاحظ أن الإنسان كلما ازداد كماله كلما اشتد ابتلاؤه ، إذ أنه يتألم من أمور لا يدركها العادي من الناس وهذه مسألة نشاهدها ونلمسها في معاملتنا اليومية : فمن الناس من لا يؤلمه الكلام مهما كان نابيا أو جارحا ، ومنهم من تؤلمه الكلمة أيما بل مدى الحياة ، ومنهم من يبحث عن كل الطرق الممكنة لقتل الوقت الزائد عن عمله ، ومنهم من يتألم أشد الألم إذا ضاعت منه ساعة دون ثمرة ، مما يضطره إلى تحديد مقابلته في وقت معين ولفترة معينة . ومنهم من يتلذذ بمزاحمة غيره على أي شأن من الشئون ، التي تحتاج إلى هذا التراجع ومنهم من يتألم من هذه المزاحمة ولو كانت لحق من حقوقه الخ ...

ومن هنا يمكننا أن نتصور مقدار ما يتحملة النبيون والمرسلون من صنوف الإيذاء التي لا يمكن لغيرهم أن يتحملها ، وقد جاء في حديث رواه الإمام البخاري ، أن (أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأئمة فالأئمة) فهم مع كمالهم لا ينفك أذى الناس عنهم في وقتهم وفي أنفسهم وفي أموالهم وأهلهم وأصحابهم وأتباعهم .

ولا يسع من يتأمل هذا السلوك الاستفزازي القاسي من جانب المناوئين للدعوة ويقابل ذلك بقوة احتماله ﷺ لجميع المكاره لا يسعه إلا التسليم بالإعجاز الخفي المحمدي .

وقد تواتر في كتب الحديث والفقه والسيرة والتاريخ والتراجم هذا عدا التواتر المعنوي ، أنه صلوات الله وسلامه عليه كان لا يغضب إلا أن تنتهك حرمة الله تعالى . فكان ﷺ يصل من قطعه ويعطي من حرمة و يعفو عن ظلمه ، وكان صدره يتسع لكل صنوف الأذى : تقول الصديقة الكبرى أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها (ما رأيت رسول الله ﷺ منتصرا من مظلمة ظلمها قط ما لم تكن حرمة من محارم الله تعالى ، وما ضرب بيده شيئا قط إلا أن يجاهد في سبيل الله) وتقول فيما رواه الحاكم (لم يكن النبي ﷺ فاحشا ولا متفحشا ولا يجزي السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح ، وما انتقم لنفسه من شيء إلا أن تنتهك حرمة الله فيكون الله ينتقم) وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال (خدمت النبي ﷺ عشر سنين فما قال لي أف قط ولا قال لشيء صنعت لم صنعت ولا لشيء تركته لم تركته) . وهؤلاء قومه لم يتركوا وسيلة من وسائل الأذى إلا وقد جربوها بل لقد تأمروا جميعا على قتله ليلة الهجرة ، فلما مكثه الله تعالى منهم قال لهم : " اذهبوا فأنتم الطلقاء " وكأنهم لم يرتكبوا معه ﷺ أي شيء .

من ذا الذي يطيق الصبر على جميع صنوف الأذى ولا تبدر منه بادرة تدل على نزوله عن مرتبة الكمال الخلقى بل لا يبدر منه سوى الصفح الجميل ؟ ومن ذا الذي يهتم بهداية الخلق إلى الله عز وجل أشد من اهتمامهم بذلك مهما بالغوا في الإعراض والإساءة ، وهو لا يبغي من وراء ذلك جزاء ولا شكورا؟ ومن ذا الذي لا ييأس والقوم يردونه المرة بعد المرة حتى قال بعض رجل القبائل (ما آن لك أن تيأس منا !) من طول ما يدعوهم إلى الله سبحانه ؟ بل كان صلوات الله وسلامه عليه الله وسلامه كلما ازدادوا في الفساد وتمادوا في الطغيان ، يشتد حزنه رأفة ورحمة بهم ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثاريهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾ - سورة الكهف - ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ - من الآية الثامنة - سورة فاطر .

أعدى أعداء البشر هم أعداء رسول الله ﷺ .

إن النبيين صلوات الله وسلامه عليهم يواجهون صنفا من الأعداء لا نألفه مما يضاعف بلاءهم ، ومما يدل على قوة احتمالهم وليبيان ذلك نقول :

يتفاوت الناس في الانحطاط ولو رتبناهم درجات في ذلك : لوجدنا أنه ما من درجة إلا وكان هناك ما هو أسفل منها حتى يبلغ الانحطاط أسفل سافلين وهي المرتبة الجامعة لأحط المراتب ولا تتخط مرتبة عنها .

ولو جلنا بالفكر نبحث عن العداوة وصنوفها وأسبابها ومسبباتها لوجدنا أن أخطر درجات العداوة هي عداوة هؤلاء الذين يعاندون النبيين والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم ، ولو تصورنا ما تصورنا من عاهات نفسية وخلقية لوجدنا لأعداء الرسل النصيب الأوفر .

أعدى أعداء البشر هم أعداؤه ﷺ

إن عداوة الرجل العادي تحتاج إلى طاقة معينة من الكراهية تتناسب مع موجهها ، وكلما تدرج الشخص في الكمال كلما احتاج عدوه إلى طاقة أكبر تقابل هذا الكمال ، فإذا ما وصلنا إلى مراتب الصديقين وجدنا أن الشحنة العدائية التي يحملها مبغضهم تكفي لإشعال العداوة ضد مئات من الرجال العاديين — فالعداوة لا تتم إلا إذا وجدت هذه الكمية التي يقابل بها العدو كمال من يعاديه — فإذا انتقلنا إلى مرتبة النبوة وجدنا أن أعداء النبيين والمرسلين من الجبابرة الغلاظ العتاة ، يكفي ما يحمله الواحد منهم من عداوة لتغذية الآلاف بالعداوة العادية .

وهذه العداوة من نوع غريب لا نألفه : إذ تقصر الأسباب المألوفة عن تعليلها: فالعداوة تتجم عن الظلم والعدوان وسوء الخلق والفظاظة والقسوة والاعتصاب الخ ... والأنبياء والمرسلون منزهون عن هذا كله : بل هم المثل العليا للعدالة و حسن الخلق والرحمة والعطف والشفقة والحب والعفو الخ .. فكل صفة فيهم تجذب إلى حبهم والتعلق بهم ، ومن هنا يغزو الإيمان القلوب فيجذبون الناس إلى الله تعالى .

ولم يبق إذن من مبررات لهذه العداوة سوى العداة الذاتي المستمد من الكبر والحقد والحسد ، وهذا لا يبرر عداوة الإنسان للإنسان فما بالك بالنبيين والمرسلين .

ننتقل بعد ذلك إلى النقطة التالية :

إن الجريمة تقدر بشاعتها بقدر اتساع أثرها على المجتمع ، وقد قسمت القوانين الجرائم درجات فأعلاها الجريمة العظمى وتكون ضد الوطن بأسره لأن ضررها شامل للمواطنين جميعا .

فما بالك بجريمة يتعدى ضررها إلى الناس جميعا ! لاشك في أن مرتكبها يكون أعدى أعداء الإنسانية مطلقا .

إن الله سبحانه وتعالى قد اصطفى رسوله ﷺ وأرسله كافة للناس بشيرا ونذيرا ليخرجهم من الظلمات إلى النور ويهديهم صراطا مستقيما وأنزل عليه القرآن العظيم المعجزة التامة الشاملة ، الباقية السرمدية ، والحجة البالغة ليبين للناس ما أنزل إليهم فضلا من الله ورحمة ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة . فما هي جريمة من يصد رسول الله ﷺ ويحاول أن يمنع تبليغ الوحي الإلهي ؟ إنها جرائم يتراكم بعضها فوق بعض تقشعر لكل واحدة منها الأبدان ، ولك أن تحكم على هذا الذي يصد الناس عن خالقهم ليغرقوا في ظلمات الشرك والوثنية ، هذا الذي يحاول تجريد الناس من الإنسانية بتجريدهم من معرفة خالقهم ، هذا الذي يعمل على تكبيل الناس بالقيود التي تربطهم بالعبودية لغير الله تعالى ، هذا الذي يريد أن يعيش الناس كالحوانات بعيدا عن الدستور الإلهي وتعاليمه ، هذا الذي يريد أن يسجن النفس البشرية في غيابات حسب الغرائز والأهواء والأوهام ، هذا الذي يريد أن يعيش الناس حياة بلا هدف يأكل بعضهم بعضها ... الخ ومن هنا تدرك أن عدو رسول الله ﷺ هو أعدى أعداء الإنسانية حقاً .

obeikandi.com

١ - " لا تزيد شدة الجهل عليه إلا حلما "

كان زيد بن سعة^(١) حبراً من أحناب الیهود فی المینة قد درس صفات النبوة وعرف علاماتها فی رسول الله ﷺ وبقيت علامتان يريد أن یخبرهما : أن یسبق حلمه غضبه ، ولا تزيد شدة الجهل علیه إلا حلما ، فكان زيد ینطلق ویخالط رسول الله ﷺ يريد أن یختبره ، وفي ذات یوم جاء أعرابي یشکو لرسول الله ﷺ شدة العیش فی إحدى القرى وزید یسمع .

فقال زید لرسول الله ﷺ :

أنا أبتاع منك بكذا وكذا وسقا ، فباعني وأطلقت همیاني وأعطيته ثمانین دیناراً فدفعها إلى الرجل ، وقال أعجل علیهم بها وأغثم ، فلما كان قبل المحل بیوم أو یومین أو ثلاثة ، فخرج رسول الله ﷺ إلى جنازة بالقیع ومعه أبو بكر وعمر فی نفر من أصحابه ، فلما صلی علی الجنازة ودنا من الجدار جذبت بریدیه جذبة شديدة حتى سقط عن عاتقه ، ثم أقبلت بوجه جه غلیظ فقلت : ألا تقضیني یا محمد ، فوالله إنكم یا بني عبد المطلب لمطل ولقد كان لی بمخالطتكم علم ! " .

وقد سلك زید بتصرفه هذا أشد أنواع الاستفزاز بدون وجه من الحق .

(١) ویروی بالیاء سعية قال ابن عبد البر هو بالنون أكثر - وقصة إسلامه قد أخرجها الطبرانی وابن حبان والحاكم والبیهقي وأبو نعیم وأبو الشیخ فی کتاب أخلاق النبی ﷺ ، راجع ص ٨٣ وما بعدها طبعة ١٩٥٩ .

فارتعدت فرائص عمر رضي الله عنه كالفلك المستدير ثم رمى ببصره ثم قال: أي عدو الله أتقول هذا لرسول الله؟! وتصنع به ما أرى! وتقول ما أسمع! فوالذي بعثه بالحق لولا ما أخاف فوته لسبقني رأسك، ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر ويتبسم لقوله ثم قال: "لأنا وهو أحوج إلى غير هذا، أن تأمرني بحسن الأداء وتأمره بحسن التقاضي".

" اذهب يا عمر فاقض حقه وزده عشرين صاعاً من تمر مكان ما رعته " .

وهنا سكنت نفس زيد واطمأنت حيث وجد العلامات التي كان يبحث عنها .

فذهب به عمر فقصاه دينه وزاده صواعاً من تمر . قال زيد :

أتعرفني يا عمر ؟ قال : لا . فمن أنت ؟

قال : أنا زيد بن سعنه ، قال : الحبر ؟ قلت : الحبر .

قال : فما دعاك إلى أن تفعل برسول الله ﷺ ما فعلته وتقول له ما قلت ؟

قلت : يا عمر ؛ إنه لم يبق من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفت في وجه رسول الله ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتان لم أخبرهما منه يسبق حلمه غضبه ولا تزيد شدة الجهل عليه إلا حلما .

فقد اختبرته منه ، فأشهدك يا عمر أنني قد رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً .

٢ - " لا تكافئ بالسيئة السيئة "

في الشفاء للقاضي عياض ، عن أنس رضي الله تعالى عنه ، قال :

كنت مع النبي ﷺ ، وعليه برد غليظ الحاشية ، فجذبه أعرابي بردائه جذبة شديدة حتى أثرت حاشية البرد في صفحة عاتقه الشريف ﷺ . ثم قال الأعرابي (يا محمد أحمل لي على بعيري هذين من مال الله الذي عندك ، فإنك لا تحمل لي من مالك ولا من مال أبيك !) فسكت النبي ﷺ ، ثم قال (المال مال الله ، وأنا عبده ، ثم قال : ويقاد منك يا أعرابي ما فعلت بي) .

قال : لا . فسأله ﷺ : ولم ؟

قال : لأنك لا تكافئ بالسيئة السيئة .

فضحك النبي ﷺ ، ثم أمر أن يحمل له على بعير شعير ، وعلى الآخر تمر .

ومن سياق القصة نلاحظ :

أن رسول الله ﷺ كان لا يقتصر في الملبس على صنف بعينه بل كان يلبس ما تيسر مما هو أتم وأنفع وأصح للبدن وأنسب لحرارة الجو وكان في استطاعته ﷺ أن يقتصر على أفخر الملابس وأنفسها وأغلاها ، ولو صغنا الجواهر له رداء لكان ذلك ليس بشيء بالنسبة لمقامه ﷺ ، ولكنه لم يقبل صلوات الله وسلامه عليه أن يتميز في شئون الدنيا اللازمة للبشر . والمغالة في الملبس لا تكون إلا ممن يقصد التفاخر والتعظيم ، ولهذا خطره من النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، فلذلك يؤدي إلى افتتان كل بالآخر ، والتنافس فيما يضر ولا ينفع ، ويؤدي إلى تكليف الإنسان

ما لا يطيق ليجاري الغير ، وإلى الإقبال على التوافه ، والإسراف في الشئون المظهرية مما يهلك الإنسان ويدمر الاقتصاد . كما يؤدي إلى التعالى على الغير واحتقارهم .

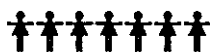
وفي هذه القصة ، وفي جميع ما ورد في السيرة العطرة نلاحظ عدم وجود حجاب يحجبون الناس عن الاجتماع برسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، بل كان صاحب الحاجة يرفعها إليه مباشرة فيقضيها له ﷺ أو يأمر بقضائها ، وفي استطاعتك أن تقارن هذا بما يقيمه الحكام من الحجاب بينهم وبين المحكومين مما يورث الذل في النفوس ، ويؤدي إلى الجهل بحقيقة ما يجري من الأمور ، ويجعل كل رئيس ينفرد بدائرة عمله لا يخشى رقبيا لنقته بأن أحد لن يستطيع أن يصل إلى رئيسه ، وقد جر هذا الداء المستفحل شر المصائب والبلايا على الشعوب وأشدها اليأس من قضاء المصالح وتقشي الظلم ، والرشوة والمحسوبية والوساطة واضطراب أمور الدولة ، حتى أصبحت الوظائف مناصب تشريف لا تكليف ، والحكم غنم لا غرم ولما تنبّهت الشعوب لهذا الداء ، هبت تحاول تحطيم الحواجز بين الأداة الحاكمة والمحكومين وتكافح في سبيل إقامة النظام العادل الذي يكفل لها حقوقها ، وهو كفاح لا يزال مستمرا . ولا يقال إن كثرة الحجاب قد استلزمته كثرة المشاغل لتوفير وقت الحكام لما هو أهم ، إذ لا نعلم مخلوقا يفوق المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم في خطورة تبعاتهم ، وعظم واجباتهم وتشعبها ، وإن أخطر المسؤوليات لا تقاس بجانب الأمانة التي كلفوا بأدائها والقيام بها ، والوحي الذي أمروا بتبليغه ومع ذلك لا يردون طارقا ولا يحجبون عنهم مخلوقا ، وإذا كان هذا واضحا في شأن المرسلين ، فهو أشد ووضحا بالنسبة لإمامهم وخاتمهم ﷺ الذي حدد الصراط المستقيم الذي يجب أن يسلكه العالمين

والذي لا يكمل وجودهم إلا باتباعه ، وإن واجبا واحداً من واجباته ﷺ لينوء
الناس جميعاً بحمله لسبب بسيط وهو أنه لسان الوحي القرآني الذي يقرر
مصير الموجودات .

وتأمل في ثقة الأعراب في مكارم أخلاقه ﷺ إلى درجة تجعل الواحد منهم
يذهب وهو مطمئن واثق بأنه سيرجع وقد قضيت حاجته وأنه مهما بدأ منه من
خطأ فسيكون مغفوا عنه مع تنبيهه إليه .

وتصور حالتك لو وجدت أن رجلاً ليس له عندك شيء ثم جاء وفعل معك هذا
وسط جمع من المسؤولين . ثم تصور أن رجلاً من العامة ذهب إلى رئيس
دولة من الدول في مجلسه فأخذ بمجامع ملابسه وطلب منه حاجته فما الذي
يحدث ؟ إن وصوله إلى رئيس الدولة في مجلسه محال من المحالات ، وعلى
فرض حدوثه فإنه سيتعرض لأشد العقوبات لجرأته ووقاحته ، فما بالك حين
يفعل هذا مع أكمل العالمين على الإطلاق ، فما الذي حدث ؟ الذي حدث أنه
صلوات الله وسلامه عليه عفا عنه وأمر له بقضاء حاجته .

وقد تبسم راضياً على رد الأعرابي ليرق من لم يصل من الحاضرين إلى هذه
المرتبة من العفو إليها .



obeikandi.com

٣ - قدمت على أسيري عندكم !

جلس صفوان بن أمية بن خلف الجمحي وابن عمه عمير بن وهب بن خلف في الحجر من البيت الحرام وقد أثقلت رأسيهما ذكريات بدر حيث لقي رعوس الكفر مصارعهم ، وفقد صفوان أباه وأخاه عليا ، وعمير قد أسر ابنه وهب وهو لا يفكر إلا في فكاكه ، وهناك في هذا المكان المقدس وضعا شر خطة يمكن أن يضعها إنسان .

وهكذا نجد أن الشر لا يأتي إلا بشر مثله أو ما هو أعمى في الشر منه ، فقريش إذ خرجت تختال إلى بدر إنما خرجت لتحارب الله تعالى ورسوله صلوات الله وسلامه عليه ، فدارت عليها الدائرة ولم تحصد سوى الخزي والهزيمة ، وبدلاً من أن يفكر زعماء قريش في موقفهم من المسلمين تفكيراً سليماً ، إذا بهم لا يفكرون إلا في الانتقام والغزو ، ولو عمد الإنسان إلى قليل من الروية والتدبر لعرف الحق ، ولو درب نفسه على الخضوع للحق أينما كان لانقاد له ، و لحافظ على شرفه وكرامته كإنسان ، ولو فعل البشر هذا لقل الظلم وانتشرت العدالة وأمن كل إنسان بأس أخيه وشره . ولكن هيهات أن يفعل إنسان هذا ما لم يكمل فيه الشرط الأساسي الوحيد ألا وهو الإيمان بالله تعالى وبرسوله صلوات الله وسلامه عليه ، فهنا فقط تطمئن النفس إلى الحق فقط ، ولا ينشرح الصدر إلى لحكم الله تعالى ورسوله ﷺ ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ - ٦٥ سورة النساء - وهنا فقط يكمل الإيمان إذ يكون هو الإنسان تابعا لما جاء من عند الله تعالى " لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به " الحديث .

فمن الحتم المقضي أن الإنسان إذا جانب صراط الله العزيز الحميد أن يتبع السبل فتفرق به عن سبيل الله تعالى حتى يدركه الأجل موزعا بين الطرق التي وضعها لنفسه والمعايير التي حكمها في حياته ، " قتل الإنسان ما أكفره " ! يترك السبيل الواضح والحجة البيضاء التي تفضي إلى كل ما فيه سعادته ، ويضع لنفسه سبلا لا تنتهي به إلى الهم والحزن والشر والضلال ، يترك دين الله تعالى ليدخل في دين من صنعه ! يريد أن يفر من الله تعالى ليسعد في أحضان الشياطين . فأين العقل أيها الناس ! وإلى أين المفر ؟

اتفق صفوان مع ابن عمه علي اغتيال رسول الله ﷺ بشرط أن يقضي صفوان ديون عمير وأن يتولى شأن أولاده من بعده . وطلب عمير من صفوان أن يكتنم ما دار بينهما لئلا يفشو الخبر ويصل إلى المدينة فيكون في ذلك هلاكه قبل أن يفعل شيئا ، وكان أعداء المسلمين يخشون ما تعودوه من شدة إطلاع رسول الله ﷺ على حركاتهم و سكناتهم إذا راموا شيئا بالمسلمين مهما بعدت الشقة وتستروا في التدبير .

ولم يكن صفوان لينتظر غزو المسلمين وكانت قريش تستعد له ، ولم تكن هذه المؤامرة بغريبة عن مثل صفوان ، وكان أبوه يعذب المستضعفين من المسلمين ، كما كان عمه يعد فرسه "العوذ" ويعلفه ^(١) فرقا كل يوم وذلك ليستعين به على قتل رسول الله ﷺ .

وأعد صفوان سيفا وأمر بصقله وسقاه سما ناقعا وأعطاه لعمير ، ورحل هذا لمهمته . وصار صفوان يتفقد الوافدين من المدينة في غياب عمير ويسألهم " هل من حدث وقع " فيجيبونه بالنفي ، وهو في هذه الأثناء يقول لقريش "ابشروا بفتح ينسيكم وقعة بدر" .

(١) الفرق : مكيال يسع ستة عشر منا وقيل اثني عشر رطلا .

وصل عمير المدينة فنزل ^(١) بباب المسجد وعقل راحلته وأخذ السيف فعمد إلى رسول الله ﷺ فدخل هو وعمر بن الخطاب ، فقال رسول الله ﷺ لعمر : "تأخر" .

ثم قال : " ما أقدمك يا عمير ؟ "

قال : " قدمت على أسيري عندكم " .

قال ﷺ " أصدقني . ما أقدمك ؟ " .

قال : " ما قدمت إلا في أسيري " .

قال ﷺ : " ماذا شرطت لصفوان بن أمية في الحجر ؟ "

ففزع عمير وقال : " ماذا شرطت له ؟ " .

قال ﷺ : " تحملت له بقتلي على أن يعول بيتك . والله حائل بينك وبين ذلك " .

قال عمير " أشهد إنك رسول الله ، إن هذا الحديث كان بيني وبين صفوان في الحجر لم يطلع عليه أحد غيري وغيره ، فأخبرك الله به ، آمنت بالله ورسوله" .

كان رسول الله ﷺ يعلم ما يدور في نفس عمير وماذا يبغي منه ، كما كان يرى حقيقة عمير الإنسان ويشهد الحجاب الذي يحول دون نفوذ الإيمان بالله تعالى إلى قلبه ، ولو زال الحجاب لآمن عمير ، فشرع رسول الله ﷺ في تحقيق المعجزة بإزالة هذا الحجاب .

(١) من حديث أخرجه البيهقي والطبراني وأبو نعيم عن موسى بن عقبة وعن عروة بن الزبير .

من الناس من يرى أن المعجزات لا تكون إلا في قلب السنن الجارية والإتيان بالخوارق الحسية ، وفاتهم أن أسمى المعجزات هي تصحيح حقيقة الإنسان : هي تحويل مشرك أو كافر إلى مؤمن أو صديق لا يعرف إلا الله عز وجل وما جاءت به رسله صلوات الله وسلامه عليهم .

وقد تكون النفس مستعدة قابلة للإيمان ولكن يحول بينها وبينه ستور من الظلام ثقل أو تشدد كثافة ؛ وكل غشاوة منها تحتاج إلى علاج معين حتى ترتفع ، وهنا موطن الإعجاز : معرفة الطريق الموصل لإزالة الموانع الحاجبة عن الإيمان .

كف رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب عن عمير ثم بدأ في التحقيق معه ، فسأله أولاً ليطمئن قلبه ، وأخذ عمير في اللف والدوران ، ثم فاجأه مرة واحدة بما دار بينه وبين صفوان في مكة ولمفاجأة الشخص بالحقيقة المكتومة صدمة تجعله ينهار ويعترف .

وكانت مفاجأة عمير بمثابة النور الذي بدد الغشاوة عن بصيرته ، وجلا عين قلبه ورفع الظلمات التي تحول بينه وبين استعداده للإيمان : إذ علم أن هذا الذي يكشف خبيئة نفسه أشد من كشف ضوء الشمس للكائنات ، وهذه الطلعة المشرقة الهائلة التي تناقشه ، وهذا الذي يعلم ما يدور بخلده ومع ذلك لا تبدر منه أية بادرة للانتقام منه : وكان له الحق كل الحق أن يصنع به ما كان هو يريد أن يصنع به ، هذا الذي يُنحّي عمر بالرغم من علمه بمقصده ويقول له " الله حائل بينك وبين ذلك " هذا هو رسول الله الذي تهتدي بهداه القلوب وتستنير به البصائر .

ومن الدلالات التي يمكنك أن تستنبطها من هذه القصة وأمثالها :

١- كمال هيبته صلوات الله وسلامه عليه فلا نجد أحدا أراد اغتياله إلا وقد شلت قواه .

٢- كمال شجاعته صلوات الله وسلامه : ولك أن تتصور حالة الإنسان مهما بلغت شجاعته إذا ما هاجمه إنسان مستعد بالسلاح يريد قتله وهو على غير استعداد لمواجهة .

٣- حرصه صلوات الله وسلامه عليه على هداية البشر : يتمثل هذا في حرصه على هداية من يقصد اغتياله .

٤- كمال عفوه صلوات الله وسلامه عليه عن من يريد قتله .

٥- إعجازه الزمني صلوات الله وسلامه عليه في علاج النفوس وتحويلها من نفوس تمتلئ بالحقد والشر إلى نفوس مؤمنة تمتلئ إنسانية ويتفجر منها الخير كل ذلك في لحظات .

٦- إعجازه صلوات الله وسلامه عليه في اجتثاث أصول الإجرام من النفوس البشرية ولا يكون ذلك إلا مع كمال العلم بطبائع النفوس وطرق علاجها ومعرفة دواء كل داء . ومع تقدم نطاق الأبحاث النفسية ، واتساع نطاق الدراسات التربوية والاجتماعية الهادفة إلى طبع النفوس البشرية على الخير فإننا لم نصل حتى الآن إلى أية نتائج حاسمة ، ولو درس العلماء أدواء النفوس وطرق علاجها كما وضحتها الشريعة المحمدية لوفروا على أنفسهم مجهودا مضنيا شاقا ، ولقدموا للإنسانية أجل الخدمات التي يمكن أن تقدم لها؛ كي يعالج الناس مشاكلهم بالحسنى لا بسفك الدماء وتدمير كل عامر .

وبعد :

فإن لقاءً واحداً مع ذوي النفوس العالية ليترك في الإنسان طاقة من الخير تلازمه مدى الحياة ، وهؤلاء هم الذين يتمكن منهم الإيمان بالله تعالى تمكناً جعل أرواحهم إكسيرا إذا أُلقيَ على النفوس القابلة للكمال زالت المواقع التي تحول دون ظهور استعداداتهم ، وأشرقت جوانبهم واهتزت نفوسهم وربت بالخير من كل جانب . فما بالك بلقاء من أشرقت من جوانبه أنوار الوحي ، وتدفقت منه أسرار التنزيل ؟ إن لحظة واحدة من لحظات لقائه صلوات الله وسلامه عليه لا تقوم بلقاء الخلق جميعاً مدى الحياة ، لأن ما تكتسبه الروح في تلك اللحظة لا يمكن أن تكتسبه من مخلوق آخر ، وإذا علمنا هذا عرفنا لماذا بلغ أصحابه صلوات الله وسلامه عليهم درجة تُقَطَّعُ الأعناق دون التسامي إليها .



٤ - "ما من خلق الله أحب إلي منه"

روى ابن هشام في السيرة :

أن فضالة بن عمير بن الملوح الليثي أراد قتل النبي ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح ، فما دنا منه، قال رسول الله ﷺ أفضاله ؟ قال : نعم . فضالة يا رسول الله . قال ﷺ : ماذا كنت تحدث به نفسك ؟

قال : لا شيء كنت أذكر الله !

فضحك النبي ﷺ ثم قال : استغفر الله . ثم وضع يده على صدره . فسكن قلبه قال فضالة : والله ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق الله شيء أحب منه .

قال : فرجعت إلى أهلي ، فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها . فقالت : هلم إلى الحديث .

فقلت : لا . وانبعث يقول :

ياأبى عليك الله والإسلام	قالت هلم إلى الحديث فقلت لا
بالفتح يوم تكسر الأصنام	لو ما رأيت محمداً وقبيله
والشرك يغشى وجهه الإظلام	رأيت دين الله أضحي يئسناً

obeikandi.com

٥ - " يريد أن يدرك ثأر قريش كلها "

كانت قبائل هوازن وتقيف تستعد للقضاء على القوة الإسلامية ولما تم فتح مكة بادرت بالخروج في زحف جماعي ، وخرج المسلمون للقائهم في السادس من شوال من سنة ثمان أي بعد فتح مكة بستة عشر يوما ، وفي وادي حنين فاجأت القبائل المسلمين على غرة ففرّوا وثبت رسول الله ﷺ ونادى مناديه يهيب بالأنصار ليعودوا إلى القتال ، وما سمع الأنصار أمر رسول الله ﷺ حتى عادوا سراعا والتحموا مع القبائل وكسروهم كسرة فاصلة .

وكان ممن خرج مع المسلمين نفر لما يدخل الإيمان في قلوبهم من متطوعي مكة وغيرهم ومن بينهم شيبة بن عثمان بن أبي طلحة من بني عبد الدار .

وكان بنو "عبد الدار" هم أصحاب اللواء يوم أحد وقد قتل منهم والد شيبة : عثمان بن أبي طلحة ، وعمه طلحة بن أبي طلحة ونفر من أبناء عمه : مسافع والجلال وكراب والحارث أبناء طلحة . فهاج الثأر على شيبة وأخذ يترقب الفرص ليصيب رسول الله ﷺ : قال (١) شيبة : قلت أسير مع قريش إلى هوازن بحنين فعسى إن اختلطوا أن أصيب من محمد غرة فأكون أنا الذي قمت بثأر قريش كلها ! " وكان يقول " لو لم يبق من العرب والعجم أحد إلا اتبع محمد ما اتبعته أبدا " .

قال شيبة " فكنت مترصدا لما خرجت له لا يزداد الأمر في نفسي إلا قوة ، ووجد الفرصة سانحة حين تفرق المسلمون عن رسول الله ﷺ .

(١) راجع قصة إسلامه : في البغوي ، والبيهقي وأبو نعيم وابن عساكر من طريق ابن المبارك عن أبي الهذلي عن عكرمة ، وابن سعد وابن عساكر عن عبد الملك بن عبيد وغيره .

قال " فأصَلْتُ السيفُ ودنوتُ أريدُ ما أريدُ منه ورفعتُ سيفي حتى كدتُ أسوره ، فرفع لي شواظاً من نار كالبرق كاد يحشني ، فوضعت يدي على بصري خوفاً عليه " وفي رواية ابن إسحاق قال " فأدرت برسول الله ﷺ لأقتله فأقبل شيء حتى تغشى فؤادي فلم أطق ذلك " قال : فناداني رسول الله ﷺ " يا شيبه . أدن مني . فدنوت — فمسح صدري ثم قال اللهم أعذه من الشيطان .

قال : فوالله لهو كان ساعتئذ أحب إلي من سمعي وبصري ونفسي . وأذهب الله ما كان بي . ثم قال ﷺ : أدن فقاتل قال : فتقدمت أمامه أضرب بسيفي الله يعلم أنني أحب أن أقيه بنفسي كل شيء ولو لقيت تلك الساعة أبي لو كان حياً لأوقعت به السيف " .

وأمر رسول الله ﷺ عمه العباس أن يدعو الأنصار والمهاجرين وهم دعامة الجيش الإسلامي للعودة والنبات قال شيبه " فما شبّهت عطفة الأنصار على رسول الله ﷺ إلا عطفة الإبل على أولادها ، حتى ترك رسول الله ﷺ كأنه في حرجة ، فرماح الأنصار كانت أخوف عندي على رسول الله ﷺ من رماح الكفار " وانتصر المسلمون .

ورجع رسول الله ﷺ إلى معسكره فدخل خبائه . قال شيبه : فدخلت عليه .

فقال " يا شيبه الذي أراد الله بك خير مما أردت بنفسك " ثم حدّثني بكل ما أضمرت في نفسي مما لم أذكره لأحد قط ، فقلت : إني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . ثم قلت : استغفر لي يا رسول الله . قال ﷺ : غفر الله لك .

خرج مع المسلمين إلى حنين حديثه العهد بالإسلام وكان من بينهم المتظاهرين والمنافقين بل من يتربص الدوائر بالمسلمين وكان هؤلاء هم سبب الاضطراب الذي وقع في بداية المعركة .

وكانت فرصة ساعة أراد أن ينتهزها شبيبة الذي أعماه التفكير في الانتقام عن التبصر في حقيقة الأمر ، وكان عليه أن يسأل نفسه — حين جال بنفسه عاطر الثأر — لماذا خرجت قريش ولماذا خرج معها بنو عبد الدار إلى أحد ؟ ألم يخرجوا بقصد استئصال شأفة المسلمين كما صرح بذلك زعمائهم ؟ وإذا كان الأمر كذلك أينكر على الناس عامة لا على المسلمين خاصة حتى الدفاع عن أنفسهم ؟ ولندع هذه المسلمات البديهية . ولنتسائل إذا حق له أن ينتقم كما سئلت له نفسه ، ألم يفكر أن من حق المسلمين أيضا أن ينتقموا ؟ ولهم الحق كل الحق بعد أن حاول المشركون أن يغزوهم في عقر دارهم ، وبعد أن استشهد كثير من أبطالهم وعلى رأسهم سيد الشهداء الحمزة رضي الله تعالى عنهم — وإذا كان الانتقام على قدر القيمة المعنوية والأدبية ، فإن ملء الأرض من مشركي قريش لا يقوم بشهيد واحد من المسلمين .

وهاهو شبيبة يشرع في جريمة أشد هولاً : ألم يخرج مع المسلمين ويتظاهر بمظاهرتهم على عدوهم ؟ فما باله أثناء القتال وفي اللحظات الحاسمة في المعركة يريد أن يغتال رسول الله ﷺ . وما جزاء من يخون في ميدان القتال ؟ وما جزاء الاغتيال ؟ وما جزاء من يحاول ارتكابه في الميدان ، ويوجه الضربة لا إلى قائد الجيش وناهيك بها من جرائم متعددة ، بل يريد اغتيال من أرسله الله تعالى رحمة للعالمين . لو قطع شبيبة إرباً وهو على هذه الحالة لكان هذا أقل جزاء يُجْزَى به .

أقبل شبيبة يقصد رسول الله ﷺ وهو يصرح لنا بأنه كان يمتلئ عداوة ، قد استولت عليه الرغبة في التشفي ، ولما وقع عليه بصر رسول الله ﷺ : إذا بهذه الرغبة تتلاشى وإذا به يؤمر فيطيع ، ويدنو من رسول الله ﷺ فيمسح صدره فيمسح من نفسه كل دعوة للشر وتتطلق روحه في معارج الإيمان بعد

أن تغذت بالأنوار المحمدية فيقول (فوالله لهو كان ساعتئذ أحب إلي من سمعي وبصري ونفسي ... ولو لقيت تلك الساعة أبي لو كان حيا لأوقعت به السيف " يؤكد شبيبة بعد إيمانه أن شهوة النار قد حل محلها حب الله تعالى ورسوله ﷺ . ولما انتهى القتال كان عظم الجرم الذي كاد أن يقدم عليه يلاحقه ويخشى أن يلزمه بعد إسلامه فذهب إلى رسول الله ﷺ ليكون على بينة من أمره " فحدثه ﷺ بما أضمره في نفسه تطمينا له وتنبيها ودعا له بالمغفرة فزال من نفسه كل أثر قد علق بها " .

٦ - " من دخل دار أبي سفيان فهو آمن "

ولد أبو سفيان قبل البعثة بخمسين سنة ، وأبوه حرب بن أمية الذي تحمل الدماء في حرب الفجار الثاني بين قريش وهوازن ، وفي حرب الفجار^(١) الرابع قاد القرشيين و الكنانيين ضد هوازن وكان النصر حليفه ، وقد صاهر حرب بيت معتب من أشهر بيوتات تقيف ، وكان له من زوجته التقفية^(٢) حمالة الحطب أم جميل وكانت هي وزوجها أبو لهب من الغلاة في اضطهاد المسلمين وإيذائهم .

وأم أبي سفيان هي صفية بنت حزن الهلالية وهي عمة كل من أم المؤمنين السيدة ميمونة بنت الحارث بن حزن وأم الفضل لبابة بنت الحارث زوجة العباس رضي الله تعالى عنهم .

وتزوج أبو سفيان نسوة من ذوات الشرف منهن من البيت الأموي : صفية بنت أبي العاص بن أمية عمة عثمان بن عفان وولدت له حنظلة ورملة — أم حبيبة — والثانية أم قتال بنت أبي عمرو بن أمية ، عمة^(٣) عقبة بن أبي معيط ، وقد ولدت له عمرا . وتزوج من البيت العبشمي : هند بنت عتبة بن ربيعة بن

(١) الذي أشعلها : أن النعمان بن المنذر ملك الحيرة كان يبعث قافلة كل عام إلى سوق عكاظ في جوار رجل من أشراف العرب ، حيث تباع هناك ويشترى بئمنها من آدم الطائف ما يحتاج إليه . وتوجهت قافلته في خفارة عروة الرحال بن عتبة بن جعفر من بني عامر بن صعصعة من بطون هوازن ، فوثب عليه البراض بن قيس الكناني فقتله ، وأتى الخبر قريشا بعكاظ فارتحلوا قبل أن تعلم هوازن ، ولما علم هؤلاء اتبعوهم ودارت الحرب بين قريش وكنانة من جهة وبين هوازن من جهة .

(٢) فاختة بنت عامر بن معتب التقفي .

(٣) ذكر ابن اسحاق أنها أخت عقبة ، وتلقبه ابن هشام فذكر أنها عمته ، وهذا ما رواه أيضا المصعب الزبيري في كتابه نسب قريش .

عبد شمس ، وله منها معاوية وعتبة . وكانت هند هذه أبعدهن أثراً في حياته ، لا نبالغ إذا قلنا إنها كانت من الأسباب الهامة التي أخرت إسلامه .

وكان لأبي سفيان من الذكور : معاوية وعتبة ويزيد وعنبسة ومحمد وعمر وحنظلة والأخير قتل يوم بدر كافراً . وله من الإناث : صخرة ، وهند ، وجويرية ، وأميمة وقد تزوجها حويطب بن عبد العزى ، ثم صفوان بن أمية الجمحي ، وأم الحكم وقد تزوجها عبدالله بن عثمان الثقفي . وأمنة وقد تزوجها عروة بن مسعود بن معتب الثقفي ، وميمونة وكانت عند أبي مرة بن معتب الثقفي . وله من السابقات المؤمنات السيدة رمة — أم حبيبة — وقد تزوجها عبيد الله بن جحش الأسدي الذي هاجر بها إلى الحبشة مع من هاجر ، ولم يكن صادقاً في إسلامه ، فأعلن هناك رده ، وحاول أن يرد زوجته عن دينها فاحتقرته وأبت ذلك ، واعتزلت الناس حتى كادت تموت غماً وحسرة ، واستمرت على هذه الحالة حتى فوجئت برسول من عند ملك الحبشة يبشرها بخطبة رسول الله ﷺ لها وتم عقد زواجها في الحبشة .

ومنهن الفرعة ، أو الفرعاء ، تزوجها أبو أحمد عبد بن جحش بن رثاب حليف بني أمية ، ولما هاجر المسلمون من مكة ، عدا أبو سفيان على دار أبي أحمد فباعها وفي ذلك يوبخه أبو أحمد بقوله :

أبلغ أبا سفيان عن	أمر عواقبه ندامه
دار ابن عمك بعثها	تقضي بها عنك الغرامه
وحليفكم بالله رب	الناس مجتهد القسامه
أذهب بها . أذهب بها	طوقتها طوق ^(١) الحمامة

(١) أي تطويقاً لا يفارقه كما أن طوق الحمامة لا يفارقه .

وكان لأبي سفيان ابن له قضية مشهورة : هو زياد ، وقد لعب دورا هاما في التاريخ الإسلامي ، ذلك أن أبا سفيان كان كثيراً ما يطرق الطائف حيث أصهاره الثقفيين ، وكان في الطائف يتخفف من عادات القرشيين الصارمة ، فكان يرتاد حانا لأبي مريم السلولي ، وكان لطبيب العرب الحارث بن كلدة الثقفي مولاة تدعى سمية ، وقد ولدت له أبا بكر (نفيح) ونافعا ، فلم يلحقه بنسبه ، إذ كان العرب يكرهون إلحاق أولاد الإماء بأنسابهم ، فإذا ما رأوا منهم نجابة لم يروا بأسا من استلحاقهم^(١) وهجر الحارث بن كلدة مولاته سمية، فكانت تتردد على حان أبي مريم السلولي ، حيث التقت هناك بأبي سفيان ، فاصطفاها لنفسه مدة إقامته بالطائف ، ولما انصرف راجعا إلى مكة تركها حاملا . فتزوجها بعده غلام للحارث بن كلدة يدعى عبيد الرومي فوضعت زيادا عنده في السنة الأولى للهجرة ، فكان زياد ينسب لعبيد .

وقد ظهرت مواهب زياد في خلافة عمر رضي الله تعالى عنه ، فكان أبو سفيان يتمنى أن يستلحقه إلا أنه خشي بأس عمر بن الخطاب فسكت . وقد تم الاستلحاق على يد معاوية فيما بعد ، سنة ٤٤ هـ . ولما انهارت الدولة الأموية قرر الخليفة المهدي العباسي إبطال الاستلحاق سنة ١٥٩ هـ . وأمر برد نسب زياد إلى عبيد الرومي مولى الحارث بن كلدة الثقفي .

أثر زوجته هند في حياته :

تزوج أبوسفيان هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس قبل البعثة بسنتين، وكان هذا الزواج همزة الوصل التي ألقت بين البيت العيشي لقوة شخصية

(١) لما حاصر المسلمون الطائف سنة ثمان نزل أبو بكره وانضم إليهم وبقي أخوه نافع فآلحقه أبوه

هند . فقد كانت امرأة معتدة بنفسها تتدخل في شئون القوم وتمضي عليهم رأيها ، وقد ظهرت أعداء المسلمين منذ البداية . وتحب من يبايهم بالعداوة ولما فارق أبو لهب قومه في المقاطعة وظاهر عليهم كان يقول إذا لقي هنداً " هل نصرت اللات والعزى وفارقت من فارقهما وظاهر عليهما ؟ فتقال . جزاك الله خيراً يا أبا عتبة " .

وتضاعفت هذه العداوة وتحولت إلى بغض أعمى حيث أصيب والدها وعمها وأخوها في غزوة بدر . فنذرت نفسها للثأر لهم ، وعاشت في ذلك الجو البغيض وهي لا تفكر إلا بالانتقام ، وزوجها لا ينكر عليها بل يسعفها لتحقيق أغراضها ، وكانت تستحثه للحرب فتقول :

فأبلغ أبا سفيان عني مألكا^(١) فإن ألقه يوماً فسوف أعاتبه
فقد كان حرب يسعر الحرب إنه لكل امرئ في الناس مولى يطالبه

ولما تأهبت قريش للرحيل في غزوة أحد اجتمع زعماء القوم في دار الندوة يتشاورون في خروج النساء معهم وحرصت هند على سماع المناقشة . فقال أحدهم " إن خروجهن أقمن أن يحفظكم ويذكركم قتلى بدر ونحن قوم مستميتون لا نريد أن نرجع إلى دارنا حتى ندرك ثأرنا أو نموت دونه " واعترض عليه آخر قائلاً " يا معشر قريش هذا ليس برأي أن تعرضوا حرمكم لعدوكم ، ولا آمن أن تكون الدبرة — أي الهزيمة — عليكم فتفضحوا في نسائكم ، فصاحت إذ ذاك هند تجيبه " أنك والله سلمت يوم بدر فرجعت إلى نسائك ! نعم نخرج فنشهد القتال ولا يردنا أحد كما ردت الفتيات في سفرهم إلى بدر حين بلغوا الجحفة فقتلت الأحبة يومئذ ، واستطاعت ومن معها من النسوة أن تقنعهم بمصاحبة من ترغب منهن في الخروج .

(١) رسالة

وكان جبير بن مطعم قد وعد غلامه وحشي بالعتق إن هو قتل الحمزة بعمه طعيمة بن عدي وكان من قتلى بدر فكانت هند كلما مرت بوحشي تذكره وتقول " اشف يا أبا دسمة^(١) واستشف!" وكانت ترتجز مع النسوة لإثارة الحماس في صفوف المشركين فتنشد وينشدن معها :

ويهـا بنـي عــــبدالدار^(٢)

ويهـا حمـاة الأديـار

ضربا بكلـ بل بـتار .

وتقول ويقلن معها :

إن تقبلوا^(٣) نعانق ونفـرش الـنمارق^(٤)

أو تدبروا نفارق فراق غير وامق^(٥)

وفي أثناء القتال اخترق أبو دجانة الأنصاري صفوف المشركين حتى وصل إلى ظعنهم ، قال أبو دجانة " رأيت إنسانا يحمس^(٦) الناس حماساً شديداً فصمدت^(٧) إليه ، فلما حملت عليه بالسيف ولول ، فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة " وكان رسول الله ﷺ قد أعطاه هذا السيف قبيل القتال. وكانت التي تفعل ذلك هند . ولما نفذ وحشي الشرط أعطته حليها وانكبت على سيد الشهداء تمثل به وتقول :

(١) كان وحشي يكنى بأبي دسمة .

(٢) ويها : كلمة يقصد بها الإغراء والتحريض .

(٣) الوسائد الصغار .

(٤) أي على العدو .

(٥) محب .

(٦) يحرض .

(٧) قصدت .

شفيت من حمزة نفسي بأحد حتى بقرت بطنه عن الكبد
أذهب عني ذاك ما كنت أجد من لذعة الحزن الشديد المعتمد^(١)

وعلت على صخرة مشرفة في الجبل تصرخ قائلة :

نحن جزيانكم بيوم بدر والحرب بعد الحرب ذات سعر^(٢)
ما كان عن عتبة لي من صبر ولا أخني وعمه وبكري

وتمدح وحشيا بقولها :

شفيت نفسي وقضيت نذري شفيت وحشي غليل صدري
فَشُكْرُ وَحْشِي عَمِيَّ عَمِي حتى ترم^(٣) أعظمي في قبري

فأجابتها هند بنت أثاثة بن عباد بن المطلب :

خزيت في بدر وبعد بدر يا بنت وقاع عظيم الكفر^(٤)
صبحك الله غداة الفجر بالهاشميين الطوال الزهر^(٥)
بكل قطاع حسام يفري حمزة ليثي وعلي صقري
إذرام شيب وأبوك غدري^(٦) فخضبا منه ضواحي النحر^(٧)

ونذرك السوء فشر نذر

كما أجابها حسان بن ثابت بقصيدة يصور فيها نفسيتها إذ يقول :

أشِرتْ لكاع وكان عادتها^(٨) لوما إذا أشرت مع الكفر

(١) المؤلف .

(٢) التهاب .

(٣) تبلى .

(٤) كثير الوقوع في الدنيا .

(٥) من الهاشميين .

(٦) ضواحي النحر : ما ظهر من الصدر .

(٧) شبيهة عم هند .

(٨) أشرت : بطرت

وهكذا يثير الشرك في الإنسان أخط الغرائز وأخسها ، مما يجعل البشر كالكلاب المسعورة في تصرفاتها التي يتضاءل دونها ما تفعله الوحوش — ومما يدل على فرط تأثر أبي سفيان بزوجه ، أنه أخذ يضرب شدة الحمزة رضي الله تعالى عنه بالرمح ويقول " ذق عقق " ^(١) وراه الحليس قائد الأحابيش وهو يفعل ذلك فاشمأز من فعله وصاح : " يا بني كنانة هذا سيد قریش يصنع ابن عمه ما ترون لحما " ^(٢) فخجل أبوسفيان وقال له " ويحك اكتمها عني فإنها كانت زلة " وخشي أن يشيع ذلك فنأدى قبل الرحيل " إنه قد كان في قتلاكم مثلة ، والله ما رضيت وما سخطت ، وما نهيت وما أمرت " .

واستمرت في عدائها لا تلين ، بل لما وجدت أن زوجها قد استسلم في فتح مكة ، صرخت في قومها : اقتلوا الخبيث الأخمس الساقين ! ولما أسلمت لم تجد من رسول الله ﷺ سوى العفو الشامل ، وأخذ تلج الإيمان يطفئ فيها الأحقاد ويجتث منها بذور الكراهية ، ويخلص نفسيها من جحيم الحقد المتراكم لتتبت من جديد في رياض الإيمان .

أسندت قریش بعد غزوة بدر إلى أبي سفيان زعامة مقاومة المسلمين ، فتولى هذه الزعامة الكريهة بلا منازع بعد أن قتل أكابر مجرميها في هذه المعركة الفاصلة — وقد ورث أبوسفيان كثيرا من الصفات التي تجعله آخر قرشي يفكر في الاستسلام : فهو زعيم البيت الأموي الذي طالما تطلع إلى سيادة قریش ، وهو أيضا زعيم البيت العبشمي بعد مصرع عتبة بن ربيعة وأخيه شبيعة هذا إلى مصاهرته لعبئة . وهو أكبر تجار قریش وصاحب غيرها مما

(١) من العقوق .

(٢) ميتاً .

وفر له السلطة الاقتصادية التي أضافت إلى نفوذه الأدبي والسياسي ، لا بين قريش بل بين العرب ، هذا فضلا عما وفرت له من الثراء .

فالمقاومة التي تزعمها أبوسفیان كانت تتمتع بإمكانيات مادية تزيد على إمكانيات المسلمين أضعافا مضاعفة ، وهي التي سیرت في غزوة أحد ثلاثة آلاف مقاتل ، وفي غزوة الخندق حاولت القيام بعملية غزو جماعية للمسلمين في المدينة ، فجمعت اثني عشر^(١) ألف مقاتل لهذا الغرض ، ويجب أن نتصور المجهود الشاق الذي يتطلبه تحرك مثل هذا العدد في أرض صحراوية ؛ مع ما يلزم ذلك من تيسير وسائل النقل والتموين . وكان تحت يد أبي سفيان عباقرة الحرب والدهاء أمثال : خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل وعمر بن العاص ومعاوية ، ويكفي أن نتذكر أن واحدا من هؤلاء بعد الإسلام وبعد أن صقلته التربية المحمدية كان كفيلا بترويع جيوش إمبراطورية بأسرها .

ولم تكن الأوثان وعبادتها هي الدافع الرئيسي الذي يحرك أبا سفيان ، إذ لم يبلغ تعلقه بها إلى درجة أن يسعر الحرب وراء الحرب في سبيلها ، فهي أهون عنده من ذلك ، وهو يعلم أنها لا تستحق أن يعرض سلامة قومه من أجلها للخطر . ولكنه وقد آلت إليه القيادة كان من القواد الذين يدعون إلى المحافظة على الوضع كما هو ، أو ما يسميه رجال القانون Statusquo فهو يرى أن زعامة العرب يجب أن تكون في قريش فلا تنتقل من مكة إلى المدينة وإذا آلت زعامة قريش إليه ، فيجب ألا تغفل من يده ، وعلى هذا يجب أن يبذل ما في وسعه لضرب المسلمين الذين نقلوا الزعامة في نظره إلى المدينة.

(١) هذا عدا من انضم من الأعراب إليهم ، ومن كان في المدينة من المنافقين واليهود .

وقد استخدم في مقاومته كل سلاح يمكنه : مركزه الاجتماعي ، وشرفه الموروث ، وثروته ، ومركز قريش في مكة وبين القبائل العربية ، وبذل ما في وسعه لتوجيه اليهود ضد المسلمين .

محافظته على وحدة قومه :

عمل أبوسفیان على جمع كلمة قومه حتى لا يهنوا ولا يضعفوا في مقاومتهم للمسلمين ، و لذا نجده يبذل كل ما في وسعه لتوحيد صفوف القرشيين ، فلا يظهر مشكل يهددهم بالانقسام إلا ونجد أباسفيان قد ظهر وعالجه بكل حكمة حتى ينتهي بسلام .

قررت قريش — قبل الهجرة — حصار المسلمين في الشعب وأقسمت على مقاطعتهم هذه المقاطعة الظالمة الجائرة واختار القرشيون رجالا منهم لمراقبة تنفيذ ما تعهدوا عليه ، وضبطوا هشام بن عمرو العامري يهرب المؤونة للمسلمين ، فهمت قريش بقتله ، ولو قتلوه لانقسموا شيعاً يثأر بعضها من بعض ، و خشي أبوسفیان أن ينقذ الشر بين القوم فحال دون قتله وصرفهم عنه قائلا " أما إني أحلف بالله لو فعلنا مثلاً فعل كان أحسن بنا " .

وبعد غزوة بدر حدثت أزمة كادت أن تفرق البيت العيشي لولا أن تداركها أبوسفیان . فقد كان أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس زوجا لابنة رسول الله ﷺ السيدة زينب رضي الله تعالى عنها تزوجها قبل البعثة وكان ابن خالتها هالة بنت خويلد وهو من رجال مكة المعدودين أمانة وتجارة ومالا . وقد خرج مع المشركين في بدر حيث أسره المسلمون ، فمنَّ عليه رسول الله ﷺ وأطلقه ، فلما عاد إلى مكة أدن لزوجته بالهجرة . وبعث

رسول الله ﷺ زيد^(١) بن حارثة ورجلا من الأنصار ينتظرانها في بطن
يأجج على ثمانية أميال من مكة ليصحبها إلى المدينة .

قالت السيدة زينب رضي الله تعالى عنها (بينما أنا أتجهز بمكة للحوق بأبي
لقبتي هند بنت عتبة فقالت : يا بنت محمد ، ألم يبلغني أنك تريدين اللحق
بأبيك ؟ قالت فقلت : ما أردت ذلك — تريد أن تعميها عنها — فقالت هند :
أي ابنة عمي ، لا تفعلي ، إن كان لك حاجة بمتاع مما يرفق لك في سفرك ،
أو بمال تتبلغين به إلى أبيك ، فإن عندي حاجتك فلا تضطني^(٢) مني فإنه
لا يدخل بين النساء ما بين الرجال . قالت : والله ما أراها قالت ذلك إلا
لستفعل . قالت : ولكني خفتها فأنكرت أن أكون أريد ذلك ، قالت : وتجهزت
فلما فرغت من جهازها خرج بها حموها كنانة بن الربيع أخو زوجها نهارا
وهي في هودج لها ، فلحقهما القرشيون بذي طوى من مكة وتقدم هبار بن
الأسود بن المطلب ونافع — وقيل خالد — بن عبد قيس ، فنخس هبار الراحلة
فسقطت السيدة زينب ، فنثر حموها كنانته ثم قال " والله لا يدنو مني رجل إلا
وضعت فيه سهما ، وقدم أبوسفیان في جلة من قریش فقال له : أيها الرجل ،
كف عنا نبلك حتى نكلمك ، فكف فأقبل حتى وقف وقال " إنك لم تصب ،
خرجت بالمرأة على رؤوس الناس علانية وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا ،

(١) هو حب رسول الله ﷺ وكان ينسب لرسول الله ﷺ قال عبدالله بن عمر : ما كنا ندعوه إلا
بزید بن محمد حتى نزل القرآن ﴿ ادعوهم لأبائهم ﴾ فنسب إلى أبيه حارثة وهو الوحيد من
أصحاب رسول الله ﷺ الذي ذكر اسمه تصریحا في القرآن العظيم فكان رسول الله ﷺ
يحب له حب الله تعالى له وذكره لاسمه في كتابه العزيز . وقد أخى بينه وبين عمه الحمزة
رضي الله تعالى عنهما .

(٢) لا تستحي .

وما دخل علينا من محمد ، فيظن الناس إذا خرجت بابنته علانية على رؤوس الناس من بين أظهرنا أن ذلك عن ذل أصابنا عن مصيبتنا التي كانت ، وأن ذلك منا ضعف ووهن ، ولعمري مالنا بحبسها عن أبيها من حاجة ، ومالنا في ذلك من ثورة — أي ثأر — ولكن ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات ، وتحدث الناس أن قد رددناها ، فسلها سرا وألحقها بأبيها .

فرجع بها كنانة فأقامت ليالي حتى إذا هدأت الأصوات خرج بها ليلا حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه فقدا بها على رسول الله ﷺ .
وفي ذلك يقول كنانة :

عجبت لهبار وأوباش قومه يريدون إخفاري ^(١) بينت محمد
ولست أبالي ما حييت عديدهم وما استجمعت قبضا يدي بالمهند

ولم يعجب هند بنت عتبة ما حدث ولذا نجدها تتلقى زوجها ومن معه حين انصرفوا عن زينب رضي الله تعالى عنها . فتوبخهم بقولها :
أفي السلم أعيار ^(٢) جفاء وغلظة وفي الحرب أشباه النساء العوارك! ^(٣)

وحدث أيضا بعد غزوة بدر حادث كاد أن يوقع ما بين بني مخزوم وبني أمية فيقسم قريشا إلى حزبين متطاحنين :

فقد تزوج أبوسفیان والوليد بن المغيرة بنتين لأبي أزيهر بن أنيس الدوسي أحد أشراف دوس ودفعاً له صداقهما ، فجهز ابنته عاتكة لزوجها أبي سفيان ،

(١) نقض عهدي .

(٢) عركت المرأة أي حاضت .

(٣) جمع عير وهو الحمار .

وَأَمْسَكَ الْآخَرَى عَنْ الْوَلِيدِ بْنِ الْمَغِيرَةِ ، فَلَمَّا حَضَرَتِ الْوَلِيدُ الْوَفَاةَ أَوْصَى بَنِيهِ: هَشَامًا وَالْوَلِيدَ وَخَالِدًا بِأَنْ يَسْتَرِدُّوا الصَّدَاقَ مِنْ أَبِي أَزْيَهْرَ لثَلَا تَكُونُ سَبَّةً فِي حَقِّ بَنِي مَخْزُومٍ ، وَلَمَّا حُلَّ سَوْقُ ذِي الْمَجَازِ نَزَلَ أَبُو أَزْيَهْرَ عَلَى أَبِي سَفْيَانَ فَقَصَدَهُ اثْنَانِ مِنْ أَبْنَاءِ الْوَلِيدِ وَسَأَلَاهُ أَنْ يَرُدَّ الصَّدَاقَ فَقَالَ لَهُمَا : " أَمَّا وَأَنْتُمَا تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ فَلَا فَضْرِيهِ هَشَامُ بْنُ الْوَلِيدِ بِالسُّيُوفِ فَقَتَلَهُ .

وَبَدَرَ الشَّرَّ بَيْنَ الْمُطِيبِينَ ^(١) وَالْأَحْلَافِ فِي قَرِيشٍ . وَالْمُطِيبُونَ هُمْ : بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ ، وَبَنُو أَسَدٍ وَبَنُو زَهْرَةَ وَبَنُو تَمِيمٍ وَبَنُو الْحَارِثِ ، وَالْأَحْلَافُ هُمْ لَعْقَةُ الدَّمِ هُمْ : بَنُو عَبْدِ الدَّارِ وَبَنُو مَخْزُومٍ ، وَبَنُو جَمَحٍ وَبَنُو سَهْمٍ وَبَنُو عَدِي .

وَلَمْ يَفْتِ مَا حَدَّثَ عَلَى حَسَانَ بْنِ ثَابِتٍ فَقَالَ يَعْرِضُ بِأَبِي سَفْيَانَ وَيَحْرُضُ الْمُطِيبِينَ عَلَى الْأَحْلَافِ :

غَدَا أَهْلُ ضَوْجِي ذِي الْمَجَازِ كَلِيهِمَا ^(٢) وَجَارُ ابْنِ حَرْبٍ بِالْمَغْمَسِ ^(٣) مَا يَغْدُو
كَسَاكَ هَشَامُ بْنُ الْوَلِيدِ ثِيَابَهُ ^(٤) فَابِلٌ ^(٥) وَاخْلُقْ مِثْلَهَا جَدِّدًا بَعْدَ ^(٦)
قَضَى وَطَرًا مِنْهُ فَأَصْبَحَ مَاجِدًا وَأَصْبَحْتَ رَحْوًا ^(٧) مَا تَخْبُ وَمَا تَعْدُو

^(١) لَمَّا مَاتَ قَصِي جَعَلَ وَظَائِفَ الْكَعْبَةِ لِابْنِهِ عَبْدِ الدَّارِ فَفَازَ بِهِ ذَلِكَ بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ وَانْقَسَمَتْ قَرِيشٌ: طَائِفَةٌ تَعَاقَدَتْ مَعَ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ وَأَخْرَجَتْ لَهُمْ أُمَّ حَكِيمَ الْبَيْضَاءِ بِنْتَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ جَفْنَةً مَمْلُوءَةً طَيِّبًا فَعَمَسَ الْمُتَعَاقِدُونَ أَيْدِيَهُمْ فِيهَا ثُمَّ مَسَحُوهَا بِالْكَعْبَةِ تَوْكِيدًا لَمَّا بَيْنَهُمْ فَسَمَوْا بِالْمُطِيبِينَ — وَطَائِفَةٌ تَعَاقَدَتْ مَعَ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ وَهُمْ الْأَحْلَافُ .

^(٢) مَوْضِعٌ بِطَرِيقِ الطَّائِفِ فِيهِ قَبْرُ أَبِي رِغَالٍ دَلِيلُ أُبْرَهَةَ .

^(٣) تَنْثَبَةُ ضَوْجٍ وَهُوَ مُنْعَطَفُ الْوَادِي .

^(٤) يُقَالُ لِمَنْ لَبَسَ الثَّوبَ الْجَدِيدَ " اِبِلٌ وَاخْلُقْ " .

^(٥) أَيُ ثِيَابٍ ذَلَّ جَدِيدَةٍ لَا تَزَالُ تَتَجَدَّدُ بِاسْتِمْرَارٍ .

^(٦) يُرِيدُ أَنَّهُ كَسَاهُ الذَّلَّ وَالْعَارَ بِقَتْلِ حَلِيفِهِ ، وَالْخَطَابُ لِأَبِي سَفْيَانَ .

^(٧) سُلْسُ الْقِيَادَةِ مُسْتَكِينًا .

فلو أن أشياخاً^(١) يبدرو تشاهدوا^(٢) لبل نعال القوم معتبط^(٣) ورد^(٤)
ولم يمنع العير^(٥) الضروط ذماره وما منعت مخزاة والدها هند^(٦)

فلما بلغ قوله يزيد بن أبي سفيان وكان بمكة جمع بني عبد مناف والمطيبين
وقال " أيها الناس أخفر أبوسفيان في جاره وصهره وهو ثائر به " ، ولما رأت
الأحلاف ذلك اجتمعوا وتعبأوا للقائهم ، ووصل الخبر إلى أبي سفيان وهو
بذي المجاز ، فدعا بفرسه وألقى عليه لبدا ، وأسرع حتى قدم مكة ، فلحق
القوم وقد برزوا للقتال ، فوقف بين الجمعين ، وكان اللواء بيد ابنه يزيد وهو
في الحديد ، فاخطفه منه وضرب به ببيضته ضربة هده منها ثم قال " قبحك
الله ، أتريد أن تفرق بين قریش فيقوى علينا محمد ! لعمرى ما بدوس عجز
عن طلب ثأرهم "^(٧) ثم قال " أيها الناس : إن خلفنا عدوا شامتا ، وحتى نفرغ
مما بيننا وبينه ننظر فيما بيننا وبينكم فليُنصرف كل إنسان إلى منزله
" وقرر أن تدفع الدية لدوس إن قبلت . فتفرق القوم وقد أصلح أبوسفيان بينهم
، ولما بلغه شعر حسان قال " يريد حسان أن يضرب بعضنا ببعض في رجل
من دوس ، بئس والله ما ظن . "

(٣) الدم الطري .

(٤) الأحمر .

(١) يريد من قتل من المشركين من أشياخ قریش يوم بدر .

(٢) حضروا هذا الحادث .

(٦) لم تغسل الخزي الذي يلحق والدها .

(٥) الحمار .

(٧) المصعب الزبيري : نسب قریش ، ص ٣٢٣

محاولاته في سبيل تطويق المسلمين :

وكان لشدة حرصه على كسب المعرفة مع المسلمين يبذل ما في وسعه لمحاصرتهم ، ولكن رسول الله ﷺ ضيق عليه كل سبيل يسلكه في هذا المضمار ، فقد وادع ﷺ القبائل المحيطة بالمدينة ، وسيرت القوات المحمدية على طريق الشام في الغرب وطريق العراق في الداخل ، وأدب المسلمون القبائل التي حاولت النيل منهم .

وكان أبوسفیان يؤمن أنه يستطيع أن يضرب المسلمين من الخلف لو ضم اليهود إلى صفه فكان على اتصال مستمر بهم ، فنزل بعد وقعة بدر عند سلام ابن مشكم سيد بني النضير وسهر عنده ليلة كاملة يستقي منه أخبار المسلمين ويتجسس عليهم ، ويفاوضه في التحالف ضدهم ، وفي ذلك يقول :

وإني تخيرت المدينة واحدا لحلف فلم أندم ولم أتلوم

ولكن رسول الله ﷺ لم يترك لليهود - وكان هواهم مع المشركين - أية فرصة ليطعنوا المسلمين من الخلف . و انتهر بنو النضير حادث بئر معونة لاغتيال رسول الله ﷺ وقتال المسلمين ، فأجلاهم ﷺ عن المدينة .

وفي غزوة الخندق اتصل أبوسفیان ببني قريظة ليطعنوا المسلمين من ورائهم ، ولكن نعيم بن مسعود الأشجعي فوت عليهم هذه الفرصة وأوقع ما بين الأحزاب واليهود ، ولولا ذلك لانهصر المسلمون بين جهتين قويتين .

ولما فشل أبوسفیان في السيطرة على طريق الساحل ، أراد أن يطرق دروب القوافل الداخلية ، من ناحية نجد ليكون تحت حماية القبائل ، ولكن رسول الله ﷺ أغلق عليه هذا الباب ، إذ فاجأ زيد بن حارثة قافلة قريش وفيها صفوان بن أمية زوج ابنة أبي سفيان ومعه حويطب بن عبد العزى ، وغنم زيد القافلة ، وفر رجالها ، فكان ذلك إيذانا بتطويق المسلمين لقريش ، بدلا من أن تطوقهم .

وكان أبوسفیان خبيراً بدروب الصحراء ومسالكها نظراً لطول ممارسته للتجارة ، وكان إذا ما خرج في قافلة يرسل الطلائع والعيون يستقون أخبار المسلمين قبل مرور القافلة ، فإذا سمع أي خبر رجع جانب الحذر على جانب التحري في المعلومات ، وغير طريقه ليفلت ، كما حدث في القافلة التي كانت سببا في وقعة بدر الفاصلة . ومع شدة حيظته وخبرته لم يستطع أن يخترق الحصار الإسلامي الذي أخذت تشعر به قريش .

ويدخل ضمن التطويق المعنوي ما حدث بين أبي سفيان والشاعر الأعشى مسمون بن قيس :

فقد ارتحل الأعشى وافداً على رسول الله ﷺ وقد مدحه بقصيدة مطلعها :
ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا وعادك ما عاد السليم المسهدا
إلى أن يقول :

فأليت لا أرثي لها من كلاله^(١) ولا من حفا^(٢) حتى تزور محمدا
نبي يرى ما لا ترون وذكره أغار لعمرى في البلاد وأنجدا^(٣)
متى ما تُناخي عند باب ابن هاشم تراحي^(٤) وتلقي من فواضله يدا
فبلغ خبره قريشا ، فرصدوه على طريقه ، وقالوا : هذا صنّاجة^(٥) العرب ما
مدح أحدا قط إلا رفع في قدره ، وكانوا يعلمون أن قدر رسول الله ﷺ
لا يستطيع أن يعرب عنه ناطق بفم ، إلا أنهم يخشون شدة أثر شعر الأعشى
في قبائل العرب .

(١) رقة القدم يقصد طول المسير .

(٢) تعب - وهو يقصد مطيته .

(٣) أغار : انحدر ناحية الغور مغرباً عن تهامة ، وأنجد : دخل النجد ، وهو ضد الغور .

(٤) استريحي .

(٥) كان الأعشى يسمى كذلك لجودة شعره ، وكأنه يلعب الصنج .

فلما اجتمعوا به قالوا له : أين أردت يا أبا بصير ؟ قال : أردت صاحبكم هذا لأسلم . قالوا : إنه ينهاك عن خلال ويحرمها عليك . قال : وما هي ؟ فقال أبوسفیان : الزنا . قال : لقد تركني الزنا وتركته . ثم ماذا ؟ قالوا القمار . قال : لعلي أن لقيته أصيب منه عوضا من القمار . ثم ماذا ؟ قالوا : الربا . قال : ما دنت ولا أدنت . ثم ماذا ؟ قالوا : الخمر . قال : أوه ! ارجع إلى صباية قد بقيت في المهراس^(١) فأشربها .

فقال له أبوسفیان : هل لك في خير مما هممت به ؟ قال : وما هو ؟ قال : نحن وهو الآن في هدنة فتأخذ مائة من الإبل ، وترجع إلى بلدك سننك هذه ، وننظر ما يصير إليه أمرنا ، فإن ظهرنا عليه كنت قد أخذت خلقاً ، وإن ظهر علينا أتيت . فقال ما أكره ذلك .

فقال أبوسفیان : يا معشر قريش ، هذا الأعشى ! والله لئن أتى محمداً واتبعه ليضرم عليكم نيران العرب بشعره فاجمعوا له مائة من الإبل ، ففعلوا فأخذها وانطلق . فلما كان باليمامة رمى به بعيـره فقتله ! وهذه هي نهاية التكالب على الدنيا ، لا تزال النفس تحدث صاحبها عن المال ، حتى يعرض عن دين الله عز وجل من أجله ، فيدركه الموت في أي واد من أودية الهوى أو شعبة من شعابه .

حرصه على التفوق العددي :

ومع عدم استطاعة أبي سفيان تقليد المسلمين في قاعدة التعبئة العامة ، إلا أنه كان شديد التمسك بتفوقه العددي ، وقد ساعده على هذا التفوق ثراء القرشيين وكثرة سلاحهم . وحرصا على هذا التفوق ، كان يحافظ أشد المحافظة على حسن العلاقات بينه وبين القبائل العربية ، فتحارب في صفه إذا ما دعاها للحرب ، ولا تفوته في ذلك شاردة إلا وقد عمل حسابها .

(١) حجر منقور يسع كثيرا من الماء .

تنازع عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة رياسة بني عامر ، وكان من عادة العرب إذا تنازع بيتان رياسة قبيلة أن يتنافرا ، فيتباهى كل منهما بأفعاله ، فإن لم يسلم أحدهما للآخر اختارا حكما يحتكمان إليه ، وقد لا يرتضيان الحكم فتشتعل الحرب بين المتنافسين ويسري ذلك على الحكم نفسه .

وكانت العرب تحتكم إلى قريش ، فخرج علقمة في بني خالد ، وعامر في بني مالك وجعلا منافرتهم إلى أبي سفيان . فأبى أن يحكم بينهما ، خشية أن يؤدي ذلك إلى توتر العلاقات ما بين قريش وما بين بني عامر . وتخلص منهما بقوله " أنتما كركبتي البعير الأدرم — أي التي لا يظهر عظمها من السمن — قال : فأينا اليمين ؟ قال : كلاهما يمين ! فانصرفا عنه - وبذا جُنب قريشا شرٌّ هذا التحكيم .

وتنفذا لقاعدة التفوق العددي نجده يهاجم المسلمين في غزوة أحد بأكثر من أربعة أمثالهم ، وفي غزوة الخندق ، لا يهاجم إلا بعد تكوين جبهة من القبائل المناوئة للمسلمين ، وقد بلغت قوات الأحزاب ما يضاهي هذه الأضعاف التي سارت في أحد .

خطته في القتال :

كان يعتمد على فرقة الفرسان ليهدد مشاة المسلمين ، فكان رسول الله ﷺ يدرأ خطرهم بفرقة الرماة — وكان يستغل عباقرة الحرب فيما بعد : أمثال خالد بن الوليد ، وعمر بن العاص ، وعكرمة فيعينهم قادة الفرسان ، أو يُسند إليهم حماية مؤخرة الجيش في حالة الهزيمة . إلا أن رسول الله ﷺ كان يفاجئهم جميعا بما يشل حركاتهم ، وما نال المشركون من المسلمين إلا عن طريق مخالفة غير مقصودة لأوامره الحربية ﷺ .

ترجيحه لسلامة قواته :

إن الأثر العميق الذي تركته غزوة بدر في نفوس القرشيين جعل أبوسفیان يخشى أن يلحق بقواته ما لحق قريشا في بدر ويكون هو المسئول عن ذلك . ومع أن أباسفیان يفعل كل ما في وسعه للاستعداد للمعركة إلا أنه في قرارة نفسه كان يرهب القوات الإسلامية .

لما خرجت قريش تقصد المسلمين في وقعة بدر ، وكان أبوسفیان قد نجا بالعرير ، أرسل خلف قريش يقول : " إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم فقد نجاها الله فارجعوا " وكانت مقالته سببا في سماع بني زهرة لنصيحة الأخنس بن شريق فرجعوا ولم يشهد بدر زهري واحد .

وفي غزوة الخندق وجد أنه قد فشل في نيل ما يتمناه من المسلمين ، كما أخلف اليهود وعدهم ، وهبت ريح شديدة لم تترك للمحاصرين قذراً ولا ناراً ولا بناءً وخشي أبوسفیان إن استمر الحال على ذلك أن تكون الهزيمة لا محالة : فقام ذات ليلة فقال " يا معشر قريش لينظر كل امرؤ من جليسه ؟ " خشية أن يكون بعض المسلمين قد تسرب إليهم . ثم قال : يا معشر قريش ، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام لقد هلك الكراع — أي الخيل — والخف ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذي نكره ، ولقينا من شدة الريح ما ترون ، ما تطمئن لنا قذر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فإني مرتحل " ثم ركب جملة وارتحل القوم .

الاستطلاع :

كان يبيت العيون والأرصاد ويسأل كل من يصادفه عن أخبار المسلمين ويرجح دائما كفة الحذر فيقبل من الأنباء ما يبعث على تحاشي الخطر ولا يهمه إن كان الخبر صحيحا أم لا .

أقبل بقافلة لقريش من الشام فلما اقترب من منطقة المدينة ، لقي مُحشي بن عمرو الجهني وكان موادعا^(١) للفريقين فسأله : هل أحسست أحدا ؟ فقال : ما رأيت أحدا أنكره إلا أنني قد رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل ، ثم استقيا في شن لهما ثم انطلقا ، فأتى أبوسفیان مناخهما فأخذ من أبعاد بعيريهما ، ففتته ، فإذا فيه النوى ، فقال : هذه والله علائف يثرب . فرجع إلى أصحابه سريعا ، وضرب وجه غيره عن الطريق وساحل بها وانطلق مسرعا حتى أحرز العير^(٢) . وفي نفس الوقت استأجر ضمضم بن عمرو الغفاري وأمره أن يخبر قريشا بالمبادرة لإنقاذ العير من المسلمين ، وقد عمد إلى هذا التدبير خشية أن تفشل خطة الهرب .

ولما رحل المشركون بعد غزوة أحد تلاوموا وهم بالروحاء فقالوا " أصبنا جد أصحابه وقادتهم وأشرفهم ثم رجعنا قبل أن نستأصلهم! لنكرن على بقيتهم فلنفرغن منهم " وصمموا على إعادة الكرة على المسلمين . وإذا بمعبد بن أبي معبد الخزاعي قد أقبل من ناحية المدينة فاستقبله أبوسفیان متحسسا أخبار المسلمين .

فقال معبد وكان قد آلمه ما حدث في أحد " محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط يتحرقون عليك تحرقا ، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه يومكم^(٣) ، وندموا على ما صنعوا . فيهم من الحق عليكم شيء لم أر مثله قط " .

قال أبوسفیان : ويحك ما تقول !

قال معبد : والله ما أراك ترتحل حتى ترى نواصي الخيل .

(١) مسالما .

(٢) نجبا .

(٣) يعني معركة أحد .

قال أبوسفیان : والله لقد أجمعنا الكرة لنستأصل بقيتهم .

قال معبد : فإني أنهاك عن ذلك .

وخشي أبوسفیان فرحل ومن معه .

التهديد وحرب الأعصاب :

وكان يعمد إلى التهديد لعله يفت في عضد المسلمين ، فهو يتظاهر بأنه يتحرق للقائهم بعكس طبيعته . وفي طريقه إلى مكة بعد انصرافه من أحد قابله ركب من عبد القيس يسير في الطريق المؤدي إلى المدينة فانتهاز الفرصة ليبلغ المسلمين بعض تهديداته : فقال لهم " هل أنتم مبلغون عني محمداً رسالة أرسلكم بها إليه وأحمل لكم إيلكم هذه غدا زبيبا بعكاظ إذا وافيتموها ؟ قالوا : نعم . قال : فإذا جئتموه فأخبروه إنا قد أجمعنا المسير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم " وكان في إمكانه أن يرسل إلى أحد رجاله برسالة تتضمن ما يرغب في قوله إلا أنه يريد أن تتقل العرب عنه ما يحفظ له مكانته ومكانة قريش .

وفي معركة أحد تواعد المسلمين بلقائهم من العام القابل في بدر ، ولكنه عندما حان الموعد تجده يخرج في ألفين حتى يصل إلى مر الظهران (شمال شرق مكة بنحو ٣٠ كم) ثم يقوم فيخطب في الناس قائلاً : " أيها الناس إني واعدت محمداً وأصحابه أن نلتقي بموسم بدر وإن هذا عام جذب ولا يصلحنا إلا عام نرعى فيه الشجر ونشرب فيه اللبن . وقد بدا لي أن أرجع فأرجعوا ، فارجعوا . وفي ذلك يقول عبدالله بن رواحه :

وعدنا أبا سفيان وعدا فلم نجد لميعاده صدقا وما كان وافيّا
فأقسّم لو وافيتنا فلقيتنا لأبئت ذميما وافتقدت المواليا

حب الظهور :

وكان أبو سفيان يحب دائماً أن يتميز عن غيره بأفعاله وأن يظهر بمظهر المتفوق الجدير بما أسند إليه من زعامة . قتل ابنه حنظلة في وقعة بدر وأسر ابنه عمرو ، وتوجه القرشيون إلى المدينة لفداء أسراهم . ولم يفعل أبوسفيان . ف قيل له " افد ابنك عمراً " فقال " أجمع على دمي ومالي . قتلوا حنظلة لا أفدي عمراً ؟ دعوه في أيديهم يمسكوه ما بدا لهم " . وانتظر حتى يأسر أحد المسلمين فيفك به أسر ابنه . وظل يراقب المسلمين حتى انفرد بسعد بن النعمان بن أكال فعدا عليه وأسره وحبسه بمكة وفي ذلك يقول :

أرھط ابن أكال أجیوا دعاءہ تعاقدتم لا تسلموا السيد الكھلا
فإن بني عمرو لئام أذلة لئن لم يفكوا عن أسيرھم الكبلا

فأجابه حسان بن ثابت :

لو كان سعد يوم مكة مطلقاً لأكثر فيكم قبل أن يوسر القتلا
بعضب^(١) حسام أو بصفراء نبعة^(٢) نحن إذا ما أنبضت^(٣) تحفز^(٤) النبلا

فأعطى رسول الله ﷺ عمرو بن أبي سفيان لبني عمرو بن عوف ليفكوا به صاحبهم ، فبعثوا به إلى أبي سفيان فخلى سبيل سعد .

وبعد وقعة بدر أقسم ألا يمس رأسه ماء حتى يغزو المسلمين ، وأراد أن يبر بقسمه فخرج في مائتي راكب ، وسلك بهم طريق نجد حتى اقترب من

(٣) مد وترها .

(٤) تقذف .

(١) بحسام قاطع .

(٢) شجر تصنع منه القسي .

المدينة، وأرسل جماعة من أصحابه ليلاً ليقتلوا من يصادفهم من المسلمين بعيداً عن المدينة ، فصادفوا اثنين من الأنصار في حرث لهما فقتلوهما ورجعوا وارتحل أبوسفیان مسرعاً ، وليتخفف في سيره أمر من معه بطرح ما يستطيعون من زادهم ، وكانوا قد احتاطوا فحملوا كثيراً من الزاد خشية أن يطول غيابهم ، فطرحوا ما معهم وكان معظمه من السوق^(١).

وكان رسول الله ﷺ قد خرج مسرعاً في طلب القوم ، فما نجوا إلا بشق الأنفس ، وهذا يدلنا على السرعة التي كان يتم بها تعبئة المسلمين في حالات الطوارئ . ولكثرة ما طرحه أبوسفیان ومن معه من السوق أطلق على هذه الغزوة : غزوة السوق .

وكان يغار من شدة حب الصحب رضوان الله تعالى عليهم لرسول الله ﷺ ، ولعل هذه الغيرة نشأت من شدة إعجابه بنفسه وحبه للرياسة فكان يعجب لماذا لا تحبه قريش هذا الحب ! ويقول " ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمداً " .

٧- هرقل يسأل أبا سفيان :

أرسل رسول الله ﷺ كتبه إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام فأرسل دحية بن خليفة الكلبي بكتاب إلى هرقل وهذا^(٢) نصه:

(١) هو حنطة أو شعير يحمس ثم يطحن وقد يات باللبن والعسل والسمن فإن لم يكن شيء من ذلك مزج بالماء وذلك لتزويد المسافرين .

(٢) د. محمد حميد الله الحيدر - مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي ط. سادسة بيروت ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م وراجع ما ذكره ابن حجر العسقلاني عن النص الأثري للخطاب في فتح الباري.

"بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ"

من محمد بن عبدالله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم :

سلام على من اتبع الهدى . أما بعد ، فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم .
وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين . فإن توليت فعليك إثم الأريسيين^(١) ﴿ يا أهل^(٢) ﴾
الكتاب تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا
يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَا مُسْلِمُونَ ﴿
ودفع دحية الكتاب إلى حاكم بصرى الذي سلمه لهرقل^(٣) .

فأحسن هرقل وفادة دحية وخلع عليه وأمر بحراسته حتى يبلغ مأمنه . ثم
طلب أن يبحثوا له في الشام عن آخر قافلة وفدت من الحجاز .

وكانت قريش قد عقدت مع المسلمين صلح الحديبية ، وخرج أبوسفیان في
قافلة لقريش إلى الشام وهو مطمئن . وإذا برسل قيصر تطلبه ، فتوجه معهم
في جماعة من قومه إلى إيلياء (بيت المقدس) وكان هرقل يقيم بها في ذلك
الوقت ، فدعاهم إلى مجلسه وبين يديه من يترجم الحديث ، ولا ننسى أن الشام
كانت تابعة للروم وكثير من أهلها يجيد اللغتين .

هرقل : أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ؟

أبوسفیان : أنا أقربهم نسباً .

فقال : أدنوه مني . وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره — أي خلفه — ثم
قال : إني سائل هذا من هذا الرجل فإن كَذَّبَنِي فَكَذَّبُوهُ .

(١) الأجراء ، أو العامة .

(٢) سورة آل عمران ٦٤ .

(٣) أثبتت جميع المصادر الأجنبية الموثوق بها هذا الحادث الهام راجع :

Gibbon, - The History of the Decline and Fall of the Roman Empire, Vol. 5, p. 505.

قال أبوسفيان : فوالله لو كذبت ما ردوا عليّ ، ولكني كنت أمراً سيّداً أتكرم عن الكذب ، وعرفت أن أيسر مافي ذلك إن أنا كذبتّه أن يحفظا ذلك علي ثم يحدثوا به عني فلم أكذبه .

قال أبوسفيان : ثم كان أول ما سألني عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟
أبوسفيان : هو فينا ذو نسب .

هرقل : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟
أبوسفيان : لا .

هرقل : فهل كان من آبائه من ملك ؟
أبوسفيان : لا .

هرقل : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟
أبوسفيان : بل ضعفاؤهم .

هرقل : أيزيدون أم ينقصون ؟
أبوسفيان : بل يزدون .

هرقل : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟
أبوسفيان : لا .

هرقل : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟
أبوسفيان : لا .

هرقل : فهل يغدر ؟ .

قال أبوسفيان : فلم أجد شيئاً مما سألني عنه أغمزه فيه غيرها فقلت : لا .
ونحن منه في مدة^(١) لا ندري ما هو فاعل فيها .

قال أبوسفيان : فوالله ما التفت إليها مني .

هرقل : فهل قاتلتموه ؟

أبوسفيان : نعم .

هرقل : فكيف كان قتالكم إياه ؟

أبوسفيان : الحرب بيننا وبينه سجال ينال منا وتنال منه .

هرقل : ماذا يأمركم به ؟

أبوسفيان : يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً واتركوا ما يقول
آبائكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة .

ثم شرع هرقل يشرح للحاضرين ما يقصده من أسئلة : فقال موجهها الكلام
لأبي سفيان :

سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، فكذلك الرسل تبعث في نسب
قومها : وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول ، فذكرت أن لا فقلت : لو كان
أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله .

وسألتك هل كان من آبائه من ملك فذكرت أن لا . قلت : فلو كان من آبائه
من ملك لقلت رجل يطلب ملك أبيه .

وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فذكرت أن لا فقد
أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله .

(١) هدنة .

وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم — فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه .
وهم أتباع الرسل .

وسألتك : أيزيدون أم ينقصون . فذكرت أنهم يزيدون . وكذلك أمر الإيمان حتى يتم .

وسألتك أيرتد أحد سخطه لدينه بعد أن يدخل فيه . فذكرت أن لا وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب .

وسألتك هل يغدر . فذكرت أن لا . وكذلك الرسل لا تغدر .

وسألتك بـم يأمركم . فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وينهاكم عن عبادة الأوثان . ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف .

فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين . وقد كنت أعلم أنه خارج نبي ولم أكن أظن أنه منكم . فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه — ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه — ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ وأمر بتلاوته على الملاء — وأذن لأبي سفيان وصحبه^(١) بالانصراف .

وعجب أبوسفيان من موقف هرقل حتى قال لأصحابه لقد أمر — أي عظم — أمر محمد ، إنه يخافه ملك بني الأصفر ! قال أبوسفيان .. فما زلت موقنا أنه سيظهر حتى أدخل الله على الإسلام .

مصاهرة رسول الله ﷺ لأبي سفيان :

كانت السيدة أم حبيبة بنت أبي سفيان من المؤمنات السابقات في الإسلام وهاجرت مع زوجها عبيد الله بن جحش الأسدي إلى الحبشة فيمن هاجر ،

(١) هذه القصة مروية في كتب الحديث . وراجع صحيح البخاري — أول أبوابه — باب كيف كان بدء الوحي . أخرج هذا الحديث عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما .

وهناك حاول عبید الله أن يردّها عن دينها فأبّت وثبتت على إيمانها واستبد بها الحزن والأسى في دار الهجرة ، وانعزلت عن الناس تكاد تتفطر أسى حتى مات زوجها .

قالت^(١) السيدة أم حبيبة رضي الله تعالى عنها " فوالله ما هو إلا أن انقضت عدتي . وإذا رسول النجاشي على بابي يستأذن عليّ في الدخول . فأذنت له . فإذا هي جارية للنجاشي يقال لها أبرهة كانت قيمة — خازنة — على ثيابه ودهنه . فبعد أن دخلت عليّ قالت لي : إن الملك يقول لك إن رسول الله ﷺ قد كتب إليه أن يزوجه بك . فقلت : بشرك الله بالخير فقالت : ويقول لك الملك من يزوجه ؟ — أي من الذي يتوكل عنك في عقد زواجك . قالت : فأرسلتُ في الحال إلى خالد بن سعيد بن العاص فوكلته وقلت لها وكيلي خالد بن سعيد بن العاص . وأعطيتها سوارين من فضة كانا في يدي وخواتم من فضة أيضا كانت في أصابعي سرورا بما بشرتني به . فلما كان العشاء أمر النجاشي بجعفر بن أبي طالب ومن معه من الصحابة فحضروا ، وتم الزواج وأصدقها النجاشي أربعمائة دينار ، وأقام وليمة لمن حضر . قالت السيدة أم حبيبة رضي الله عنها : " فلما وصل إليّ المال أرسلتُ إلى أبرهة التي بشرتني فقلت لها : إني كنت أعطيتك ما أعطيتك لكونه لم يكن لي مال يومئذ فهاك خمسين مثقالا خذيها واستعيني بها . فأبّت وأخرجت من حقّ معها كل ما كنت قد أعطيتها إياه أولا فردته عليّ . وقالت إن الملك قد عزم عليّ أن لا أخذ منه شيئا " فلما كان من الغد جاءتها بطيب كثير هدية من عند النجاشي ثم جهزها النجاشي وأرسلها مع شرحبيل بن حسنة رضي الله تعالى عنه^(٢).

(١) راجع القصة في الطبقات لابن سعد . والمسند للإمام أحمد والسنن لأبي داود والنسائي —

والمستدرک للحاکم . وراجع ما ذكره ابن القيم في زاد المعاد — ج ١ ص ٢٨ — ٢٩ .

(٢) وعلى ذلك تكون رضي الله تعالى عنها قد قدمت فيمن قدم بعد بدر وقبل خيبر .

ولك أن تستنبط ما شئت من مكارم الأخلاق التي دلت عليها هذه المصاهرة بالنسبة لهذه التي قاست ما قاست من الأهوال ، وبالنسبة لأبيها الذي قاد مقاومة لا هوادة فيها ، ولم يترك بابا من أبواب الكيد للمسلمين إلا وقد طرقه حتى انتهى به الأمر إلى محاولة القيام بتعبئة العرب تعبئة جماعية لغزوهم ، بل ولم يحجم عن إرسال السفاحين لاغتيال رسول الله ﷺ .

ولو شئت أن تتصور الموقف : فأخبرني هل في طاقة أي رئيس دولة مهما علت نفسه وكمات أخلاقه أن يحسن ما وسعه إلى رئيس آخر يبذل ما في وسعه لتقويضه ويرسل القنلة لاغتياله ، ويعبئ الدول لحصره وغزوه ؟

ولكننا أمام المثل الإنساني الأعلى ، منبع مكارم الأخلاق ، الذي بهرنا بكل تصرف كان منه ، ونحن كلما تعمقنا في فهم هذا التصرف وتحليله على قدر مستوانا كلما ثبت لنا أن هذا الكمال لا يصدر إلا عن هذه المرتبة وأن كل ظاهرة تنسب إليه ﷺ تمتاز بأنها فريدة في كمالها بالنسبة للعالمين .

وقد ظن أبوسفیان أن هذه المصاهرة الكريمة ، ستكون سببا في فتح باب المساومة ، إذا ما أشكل أمر بينه وبين المسلمين . لذا نجده حين نكتث قریش عهد الحديبية يتجه إلى المدينة ويدخل عند ابنته أم حبيبة رضي الله تعالى عنها محاولا تجديد العهد عن طريقها ، وهو في هذا ولاشك يقيس ما لهند زوجته من سلطان عليه فيظن أن ابنته تستطيع أن تفعل ما تفعله هند — دخل بيت ابنته ، فلما أراد الجلوس ، طوت عنه فراش رسول الله ﷺ فقال " يا بنية ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني " ؟ فقالت : " بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك نجس ، ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ " قال : " والله لقد أصابك يا بنية بعدي شر " فقالت " بل خير " وانصرف من عندها ولم يظفر بطائل .

أبوسفیان يحاول رتق ما نقضته قريش من صلح الحديبية :

كان من بين نصوص صلح الحديبية أن من أحب أن يدخل في عقد رسول الله ﷺ وعهده فليدخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فليدخل فيه . فدخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم ، ودخلت خزاعة في عقد رسول الله ﷺ وعهده .

وكان بين خزاعة وبين بني بكر ثأر فاغتمت بنو الدئل من بكر الهدنة ليصيبوا ثأرهم من خزاعة ، فخرج نوفل بن معاوية الدئل في بني الدئل وفاجأ خزاعة وهم على ماء لهم يقال له "الوتير" ومد القرشيون البكريين بالسلاح وتطوع بعضهم مستخفيا حتى حازوا خزاعة إلى الحرم ، ولكنهم لم يراعوا للحرم حرمة ، وصرخ فيهم نوفل بن معاوية : يا بني بكر أصيبوا ثأركم فلعمري إنكم لتسرقون في الحرم أفلا تصيبون ثأركم فيه ! ولجأ بعض الخزاعيين إلى دار بديل ابن ورقاء الخزاعي بمكة ودار مولاه رافع وفي ذلك يقول الأخرز الديلي :

وعند بديل محبسا غير طائل
شفينا النفوس منهم بالمناصل^(١)
نفحنا لهم من كل شعب بوابل^(٢)
أسود تباري فيهم بالقواصل^(٣)

حبسناهم في دارة العيد رافع
بدار الذليل الآخذ الضيم بعد ما
حبسناهم حتى إذا طال يومهم
نذبهم ذبح التيوس كأننا

(١) السيوف .

(٢) يريد هجمنا عليهم من كل واد كالمطر .

(٣) الأنياب .

فأرسلت خزاع عمرو بن سالم الخزاعي يطلب النصرة من رسول الله ﷺ بعد أن نقضت قريش وبنو بكر عهد الحديبية . فدخل المسجد ورسول الله ﷺ جالس في صحبه فقال :

يا رب إنني ناشد محمدا	حلف أبيينا وأبيه الأتلتدا ^(١)
قد كنتم ولدا ^(٢) وكنا والدا	ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصر هداك اله نصرنا اعتدا	وإدع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا ^(٣)	إن سيم خسفا وجهه تربدا ^(٤)
في فيلق كالبحر يجري مزبدا	إن قريشا أخفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا	وجعلوا لي في كداء رسدا ^(٥)
وزعموا أن لست أدعو أحدا	وهم أذل وأقل عددا
هم يبتونا بالوتير ^(٦) هجدا ^(٧)	وقتلونا ركعا وسجدا

فقال رسول الله ﷺ (نصرت يا عمرو بن سالم) ثم جاء بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة فقصوا ما حدث على رسول الله ﷺ وانصرفوا راجعين إلى مكة .

وكان رسول الله ﷺ عليما بطباع أبي سفيان فقال لمن حوله (كأنكم بأبي سفيان جاءكم ليشد العقد ، ويزيد في المدة) .

(١) القديم .

(٢) يريد أن أم قصي وأم بني عبد مناف كانتا من خزاعة .

(٣) تغير .

(٤) تهيأ .

(٥) موضع بأعلى مكة .

(٦) ماء بأسفل مكة لخزاعة .

(٧) نياما .

اتفق القرشيون على تسيير أبي سفيان إلى المدينة ليجدد العهد ويزيد في المدة، ولما وصل المدينة دخل على ابنته أم المؤمنين السيدة أم حبيبة رضي الله تعالى عنها ولم تكن قد رآته مذ هاجرت إلى الحبشة وهي مدة تقرب من خمسة عشر عاما .

أكان أبوسفيان يظن أن هذا اللقاء بعد فراق طويل ، وماله من حق الأبوة سيكون له أثره في ابنته ؟ ألم يعلم بأن الرجل ما أن يدخل الإسلام في قلبه حتى يفتدي رسول الله ﷺ بكل ما يملك ! فما بالك بأمهات المؤمنين رضي الله تعالى عنهن ! إن ملء الأرض مثله لا يمكن أن يغير أنملة في نفسية السيدة أم حبيبة رضي الله تعالى عنها ، ولما لم يجد عندها سوى الإعراض عنه لشركه، انصرف عنها إلى رسول الله ﷺ فلم يرد عليه شيئا . فذهب إلى أبي بكر وطلب منه أن يكلم له رسول الله ﷺ فقال الصديق الأكبر : ما أنا بفاعل — ف جاء عمر بن الخطاب وطلب منه ما طلب من أبي بكر فقال عمر : أنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ ! فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به ، فعمد إلى بيت علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه فقال : يا علي إنك أمس القوم بي رحما وإني قد جئت في حاجة فلا أرجع كما جئت خائبا ، فأشفع لي إلى رسول الله ﷺ فقال له : ويحك يا أبا سفيان ! والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه . فالتفت إلى السيدة فاطمة الزهراء رضي الله تعالى عنها فقال : يا ابنة محمد . هل لك أن تأمري بنيك هذا — يريد الحسن وكان طفلا صغيرا فيجبر بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟ قالت والله ما بلغ بني ذلك أن يجبر بين الناس ، و ما يجبر أحد على رسول الله ﷺ قال : يا أبا الحسن : إني أرى الأمور قد اشتدت علي فانصحنى قال: والله ما أعلم لك شيئا يغني عنك ، ولكنك سيد بني كنانة فقم فأجر بين الناس ، ثم ألحق بأرضك . قال : أوترى ذلك مغنيا عني شيئا ؟ قال : لا والله، ما أظنه، ولكني لا أجد لك غير ذلك . فقام أبوسفيان في المسجد فقال :

أيها الناس إني قد أجرت بين الناس . ثم ركب بغيره فانطلق راجعاً فلما قدم على قريش سألوه : ما وراءك؟ فقص عليهم ما حدث ، فلما وصل إلى مشورته لعلي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه . قالوا : ويلك ! والله إن زاد الرجل على أن لعب بك فيما يغني عنك ما قلت .

٨ - إسلام أبي سفيان

وضع رسول الله ﷺ خطة حربية محكمة لإجبار مكة على التسليم بدون قتال ، فأمر أثناء تجهيز المسلمين للخروج بحراسة الطرق المفضية إلى مكة حتى تعمى قريش عن حركات المسلمين الحربية ، إذ لو علمت بحركاتهم في حينها لتأهبت واستعدت للحرب ، وحشد رسول الله ﷺ أكبر قوة ضاربة لتضعف رغبة قريش في القتال إذا ما وجدت نفسها أمام هذا العدد الذي بلغ في بعض الروايات اثني عشر ألفاً ، ولا يخفى أن القرشيين كانوا قد اعتادوا التفوق على المسلمين في العدد ، وحصولهم على التفوق العددي الذي اعتادوه في مثل هذا الظرف هو ضرب من المحال . وأصدر الأوامر إلى القواد بحقن الدماء .

وخرج العباس بن عبدالمطلب بأهله مهاجراً فقابل رسول الله ﷺ بالجحفة^(١) ، ومضى رسول الله ﷺ حتى عسكر بالجيش في مر الظهران على سيرة ثلاثين كيلومتراً من مكة ، وكان ذلك في رمضان سنة ثمان من الهجرة وكان موافقاً فصل الشتاء — شهر يناير — فأمر ﷺ بإيقاد النيران إعلاناً بقدوم الجيش الإسلامي .

أخرج الطبراني عن أبي ليلى قال : كنا مع رسول الله ﷺ يوم مر الظهران — يعني يوم فتح مكة — فقال ﷺ : إن أبا سفيان بالإراك فخذوه .

(١) على أربع مراحل من مكة على طريق المدينة وهي ميقات أهل مصر والشام إن لم يمروا على المدينة .

وعلم العباس حرص رسول الله ﷺ على حقن الدماء ، فركب بغلة بيضاء كان يركبها رسول الله ﷺ لتكون جوازا لمرور من يركبها على الحرس دون استئذان . وقصد الإراك وهو يقول " يا صباح قريش ! والله لئن بغتها رسول الله في بلادها فدخل مكة عنوة إنه لهلاك قريش آخر الدهر " قال العباس^(١) رضي الله تعالى عنه : " فخرجت . فوالله إني لأطوف في الإراك التمس ما خرجت له : إذ سمعت صوت أبي سفيان بن حرب وحكيم بن حزان وبديل بن ورقاء وقد خرجوا يتحسسون الخبر عن رسول الله ﷺ . فسمعت أبا سفيان وهو يقول والله ما رأيت اليوم قط نيرانا !

فقال بديل : هذه والله نيران خزاعة حمشتها الحرب .

أبوسفيان : خزاعة الأم من ذلك وأذل .

وجاء العباس فقال : يا أبا حنظلة ..

أبو سفيان : أبو الفضل !..

العباس : نعم .

أبوسفيان : لبيك فداك أبي وأمي . فما وراءك ؟

قال العباس : فقلت : هذا رسول الله ورائي قد دلف إليكم بما لا قبل لكم به ، بعشرة آلاف من المسلمين .

أبوسفيان : فما تأمرني ؟

العباس : تركب عجز هذه البغلة فاستأمن لك رسول الله — فوالله لئن ظفر بك ليضربن عنقك .

(١) راجع السيرة لابن هشام — والطبري ج ٣ ص ١١٥ — ١١٦ .

قال العباس : فردفني أي ركب خلفي — فخرجت به أركض نحو رسول الله ﷺ ، فكلما مررت بنار من نيران المسلمين نظروا إلي وقالوا: عم رسول الله، على بغلة رسول الله . حتى مررت بنار عمر الخطاب. فقال عمر: أبوسفیان! الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد . ثم اشتد نحو النبي ﷺ ، وركضت حتى اقتحمت على باب القبة وسبقت عمر بما تسبق به الدابة البطيئة الرجل البطيء — يشير إلى قرب المسافة بينهما — فدخل عمر على رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله هذا أبوسفیان عدو الله قد أمكن الله منه بغير عهد ولا عقد فدعني أضرب عنقه .

فقال العباس : يا رسول الله إني قد أجرتة .

قال العباس : ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فقلت والله لا يناجيه اليوم أحد دوني . فلما أكثر فيه عمر : قلت : مهلا يا عمر ! فوالله ما تصنع هذا إلا أنه رجل من بني عبد مناف ولو كان من بني عدي بن كعب ما قلت هذا .

فقال عمر : مهلا يا عباس ! فوالله لإسلامك حين أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم ؛ وذلك لأنني أعلم أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله من إسلام الخطاب لو أسلم .

فقال رسول الله ﷺ اذهب . فقد أمناه حتى تغدو به علي بالغداة " .

فانصرف العباس واحتفظ عنده بأبسي سفيان حتى أصبح فغدا به على رسول الله ﷺ ، فلما رآه ﷺ قال : ويحك يا أباسفيان ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله ؟

فقال أبوسفیان : بأبي أنت وأمي ما أوصلك وأحلمك وأكرمك ، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عني شيئا .

فقال ﷺ : ويحك يا أباسفيان : ألم يأن لك أن تعلم أنني رسول الله ؟

فقال أبوسفيان : بأبي أنت وأمي ما أوصلك وأكرمك ، أما هذه ففي النفس منها شيء .

قال العباس : فقلت له : ويليک تشهد شهادة الحق قبل والله أن تضرب عنقك ، قال : فتشهد .

كان دم أبي سفيان مباحا شرعاً وهذا ما طلبه عمر بن الخطاب جزاء وفاقاً له على قيادته الباغية لقوى الشرك والعدوان ، مما يحول بين الناس وبين الإسلام ، إلا أن رسول الله ﷺ وقد تمكن من هذا الذي ناصبه العداوة ، أخذ يعالجه لعله يؤمن بالله تعالى ورسوله صلوات الله وسلامه عليه فينقذه من الشقاء الأبدي الذي ينتظره لو بقي على كفره ، ويهديه إلى السعادة العظمى التي تنتظر من آمن بالله تعالى ، ولك أن تتأمل كيف شئت في هذا الإعجاز الخلقي الذي ليس وراءه مرمى .

في الأخلاق العملية نجد أن الفرد قد يقاطع أخاه لهفوة عابرة بل قد تؤدي هذه الهفوة إلى تقاطع أسر وعائلات وإلى جرائم قتل وسجون . وإن فعلة واحدة من أفاعيل أبي سفيان لو فعلها إنسان مع آخر وعفا عنه فيها لقلنا إنه من أشد الناس حلماً . فما بالك بمن لا يألوا جهداً في إيذاء الآخر ولو ارتكب في سبيل ذلك ما ارتكب! ثم تصور أن ذلك قد ارتكبه مع حاكم مقتدر ، فلو عفا وصفح لقلنا إنه أشد الناس حلماً وعفوا . إلى هنا تنتهي درجات العفو التي نسمع بها ، فما بالك بمن يعالج من ركب معه في الأذى كل مركب . ليوصله إلى مراتب السعادة الحقة ويطهره من خبائث النفس ليكون إنساناً طاهراً زكياً ! لم نسمع بعفو مثل هذا قد اقترن بمثل هذه الرحمة والرفقة وإن الأقلام لتعجز عن وصف هذه الخصلة التي لو لم يكن هناك سواها لكفت دليلاً عن أن صاحبها هو مصدر مكارم الأخلاق ومالك أعنتها .

وتأمل في رفقه صلوات الله وسلامه عليه بأبي سفيان كي يسلم .

فقد ترك العباس الذي تولى مهمة الدفاع ، وعمر الذي تولى مهمة النائب العام ، يتناقشان في مصيره ، كي يقدر الموقف حق قدره ، ويثوب إلى رشده ويفارق عنجهيته . ولعلمه صلوات الله وسلامه عليه بطبيعة أبي سفيان وشدة عناده لم يبادر بدعائه إلى الإسلام ، بل أمر بحجزه ليلته ، ليفكر ويتدبر في أمره .

ولو حبس أبوسفيان حبسا انفراديا لجاز أن تغلبه نفسه ، ويصر على موقفه ، فكان دفعه إلى العباس رضي الله تعالى عنه مع ما بينهما من مودة من قبل ، إفساحا للفرصة لإقناع أبي سفيان بالإسلام ، هذا إلى ما في قضائه ليلته مع العباس من طمأنينة لنفسه وتعديل لأفكاره وموقفه .

ولما جاء به العباسُ بادر رسول الله ﷺ ببديهة مسلّمة يترتب على الاعتراف بها دخوله في الإسلام فوراً . فسأله موبخاً : ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله — فأقر أبوسفيان بالوحدانية . وإقراره بها يقتضي الإقرار بالرسالات السماوية ، وإقراره بالإعجاز القرآني يقتضي إقراره بالرسالة المحمدية ، ولكن أبا سفيان كان شديد العناد ، فبالرغم من هذا الترفق به ، وبالرغم من لزوم الحجة البالغة له : نجده يقول : أما هذه ففي النفس منها شيء ! يغلظ في الجواب وكأنه قد نسي أنه أسير حرب ، بل ومجرم حرب لو حوكم لما كان له جزاء سوى الإعدام . ويذكره العباس بموقفه : فإما الإسلام وإما القصاص — إما السعادة الكبرى وإما جهنم خالدا فيها . وحينئذ ينطق أبوسفيان بالشهادتين .

وبإسلام أبي سفيان تأكدت خطة حقن الدماء ، إذ أصبحت المقاومة بلا زعيم ، بل هاهو زعيمها سيدعو إلى المسالمة .

ولما أسلم أبوسفیان ، قال العباس " يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر ، فاجعل له شيئاً " فقال ﷺ : " نعم ، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن . "

وبهذا الإعلان العام لم يبق هناك أي مبرر للمقاومة . فقد حدد رسول الله ﷺ موقف الجيش من أهالي المدينة المفتوحة ، وبدون هذا التحديد الصريح قد يحدث اشتباك بين أهل مكة وبين المسلمين قد يؤدي إلى اندلاع حرب داخل المدينة لا يدرى مداها .

وقلنا إن الإعلان عام : لأن التنويه بدار أبي سفيان خاصة لم يقصد به امتيازها عن غيرها ، وإنما قصد منه ذكر اسم أبي سفيان في إعلان الأمان ليسكن ما في نفسه ما يجيش فيها من حب الفخر ، وليفهم من لم يعلم من أهل مكة أن أبا سفيان قد انضم إلى المسلمين فلا داعي للمقاومة . ولو تأمل أبوسفیان في معنى الإعلان لما وجد لنفسه أية ميزة عن غيره سوى هذه .

ولما ذهب أبوسفیان لينصرف قال رسول الله ﷺ لعمه " يا عباس أحبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها . "

إن رسول الله ﷺ يعالج أبا سفيان منذ أسلم لينزع من نفسه بقايا الجاهلية وآثار الشك ، كما سنرى فيما بعد . وهذا الأمر الذي أصدره ﷺ له مغزى آخر لا يدرسه سوى العباس وأبي سفيان . ثم إن هذا الموضع الذي عينه ﷺ : ممر ضيق يمكن أبا سفيان من رؤية الجيش المحمدي بوضوح ، فتكون رهبة العرض عليه أشد وأوقع ، ليضرب صفحا عن أي حديث قد تحدثه به نفسه .

إلى هذا الحد يرأف رسول الله ﷺ بعدوه بالأمس ، بزعيم المقاومة الذي طالما حشد الحشود لقتال المسلمين وطالما أوقد نار الحرب التي استشهد فيها من استشهد من الأحزاب ، إلى هذا الحد يرأف بمن كان يحشد الأحزاب ويعمد إلى كل طرق الدهاء للإيقاع بالمسلمين ، إلى هذا الحد يحرص صلوات الله

وسلامه عليه على إيمان زعيم لم يراقب فيه قرابة ولا مودة بل يرسل إليه بالأمس من يغتاله بالمدينة ، مع كل هذا يحرص على إيمانه كي يفوز بسعادة الدارين .

ومضى العباس بأبي سفيان ليشهد القوات الإسلامية عن كثب ليتمكن الإسلام من قلبه . قال العباس : ومرت القبائل على راياتها ، كلما مرت قبيلة قال : يا عباس من هذه ؟ فأقول سليم . فيقول : مالي ولسليم ! ثم تمر القبيلة فيقول : يا عباس من هؤلاء ؟ فأقول : مزينة . فيقول : مالي ولمزينة . حتى نقتد القبائل ، ما تمر من قبيلة إلا يسألني عنها ، فإذا أخبرته بهم ، قال : مالي ولبني فلان ! حتى مر رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء ^(١) فيها المهاجرون والأنصار رضي الله تعالى عنهم لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد — فقال : سبحان الله ! يا عباس : من هؤلاء ؟! قال : قلت : هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار . قال : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة . والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما . قال : قلت ويحك إنها النبوة . قال : فنعم إذن .

وهنا ذكر العباس ما يفسر اختيار رسول الله ﷺ لهذا الموضع . فقال لأبي سفيان (أتذكر تلك الكلمة !) ففهم أبوسفيان ما يريده العباس إذ كان يقول له (لا أؤمن حتى أرى الخيل في كداء ^(٢)) فقال أبوسفيان " أي والله إني لأذكرها ."

وكانت راية الأنصار مع سعد بن عباد فلما مر بأبي سفيان قال : اليوم يوم الملحمة . اليوم تستحل الحرمة . اليوم أذل الله قريشا ! وهو يعرض ولا شك بأبي سفيان . فانتظر أبوسفيان حتى حازه رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله :

(١) من كثرة الحديد .

(٢) موضع شمال مكة وهو طريق دخوله ﷺ عام الفتح ، وهو غير جبل كدي .

ألم تسمع ما قال سعد ؟ قال ﷺ : وما قال ؟ فقال كذا وكذا . فقال عمر وعثمان بن عفان وعبدالرحمن بن عوف : ما نأمن أن يكون له في قريش صولة . فقال رسول الله ﷺ (بل اليوم يوم تعظم فيه الكعبة ، اليوم يوم أعز الله فيه قريشا) ثم قال ﷺ لعلي بن أبي طالب (أدركه فخذ الراية منه ، فكن أنت الذي تدخل بها) .

ثم قال العباس لأبي سفيان : النجاء^(١) إلى قومك ، فانطلق أبوسفيان مسرعا حتى أتى جمعهم و كانوا في انتظاره فصرخ بأعلى صوته " يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به "

قالوا : فمه ؟ أي ماذا نصنع ؟

فقال : من دخل داري فهو آمن . قالوا : ويحك ! وما تغني عنا دارك ؟ وهو لحبه الفخر ذكر داره وسكت فلما عجبوا من جوابه أكمل ما جاء في إعلان الأمان .

فقال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن .

وهنا قامت إليه زوجته هند بنت عتبة فأخذت بلحيته فقالت : اقتلوا الحميث الأحمس^(٢) الساقين . قبح من طليعة قوم .

فقال : ويلكم ! لا تغرنكم هذه عن أنفسكم فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به . فستفرق الناس إلى دورهم ، واتجه البعض إلى المسجد ليرقبوا ما يحدث عن كذب.

(١) المبادرة والإسراع .

(٢) الحميث زق السمن - الأحمش : الكثير اللحم تشببه بزق السمن .

ولما تم الفتح وتحطيم الأصنام قام رسول الله ﷺ على الصفا يأخذ البيعة على الناس ، وكانت هند بنت عتبة ممن أهدر دمها ، فخرجت من بيتها مستخفية حتى جاءت رسول الله ﷺ وهو بالأبطح^(١) حيث اجتمعت نسوة قريش ، ولما بايعهن رسول الله ﷺ على ألا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن — قالت هند : إن أبا سفيان رجل شحيح فإني أصيب من ماله هنات .

فقال أبو سفيان وكان حاضرا : ما أصبت فهو لك حلال . فضحك ﷺ وعرفها فقال لها : وإنك لهذا ؟ قالت : نعم ، فاعف عما سلف يا رسول الله . فقال : ولا يزينين فقالت : أترين الحرة ؟ فقال : ولا يقتلن أولادهن . فقالت : رببناهم صغارا وقتلتموهم ببدر كبارا ! تقصد حنظلة بن أبي سفيان وقد قتل يوم بدر ! ورجعت إلى بيتها تكسر صنمها وتقول : كنا منك في غرور . فعفا عنها صلوات الله وسلامه عليه ، ولا تنسى أنها هي التي فعلت ما فعلت في غزوة أحد .

قال العلامة السيد أحمد دحلان رحمه الله تعالى : والحاصل أن أبا سفيان كان في أول الأمر مستكرها ، فلم يزل رسول الله ﷺ يترفق ؛ ويتألفه حتى تمكن الإسلام من قلبه .

أخرج البيهقي وأبو نعيم وابن عساكر عن سعيد بن المسيب قال : لما كان ليلة دخل الناس مكة ليلة الفتح لم يزالوا في تكبير وتهليل وطواف بالبيت حتى أصبحوا . فقال أبوسفيان لهند : أترين هذا من الله ؟ ثم أصبح فقدم على رسول الله ﷺ . فقال له ﷺ " قلت لهند : أترين هذا من الله ؟ نعم هو من الله " فقال أبوسفيان " أشهد أنك عبد الله ورسوله . والله ما سمع قولي هذا أحد إلا الله وهند ."

(١) الأبطح : مكان رملي منبسط بين مكة ومنى .

وأخرج ابن سعد والحارث بن أبي أسامة وابن عساكر عن عبدالله بن أبي بكر بن حزم قال " خرج النبي ﷺ وأبوسفیان جالس في المسجد ، فقال أبوسفیان " ما أدري بما يغلبنا محمد ! " فأتى النبي ﷺ حتى ضرب في صدره وقال " بالله نغلبك " ؛ فقال أبوسفیان " أشهد أنك رسول الله " .

وحضر أبوسفیان غزوة حنين بعد الفتح ، فلما رأى جولة المسلمين عن رسول الله ﷺ في بداية الموقعة قال " تنتهي هزيمتهم دون البحر وإن الأزلام^(١) لمعه في كنانته — ولما قسم رسول الله ﷺ غنائم حنين أعطى المؤلفة قلوبهم مائة ومن بينهم أبوسفیان وابنه معاوية .

وأخرج ابن سعد والبيهقي وابن عساكر عن أبي إسحاق السبيعي " أن أبا سفيان بن حرب بعد فتح مكة كان جالسا فقال في نفسه " لو جمعت لمحمد جمعا ! " إنه ليحدث نفسه بذلك إذ ضرب النبي ﷺ بين كتفيه وقال " إذن يخزيك الله " فرفع رأسه فإذا النبي ﷺ قائم على رأسه . فقال : ما أيقنت أنك نبي حتى الساعة ، إن كنت لأحدث نفسي بذلك " .

ولم يزل به ﷺ ، حتى تمكن الإسلام منه ، فجاهد في حصار الطائف حتى فقت عينه فرمى بها وقال : خيرا منها في الجنة " وفقت عينه الأخرى يوم اليرموك وهو يحث الناس ويحرضهم على القتال ويقول " هذا يوم من أيام الله ، انصروا دين الله ينصركم " وتوفي رضي الله تعالى عنه عام ٣١ أو ٣٤ هـ .

(١) الأزلام : القداح التي يستقسمون بها في الجاهلية ، والقدح سهم خال من النصل وكان أحدهم إذا أراد أمراً آخر ثلاثة أقداح مكتوب على أحدها أمرني ربي ، وعلى الثاني نهاني ربي ، والثالث غفل — فإن خرج الغفل (أي الذي لا كتابة عليه) أدارها ثانية — وكان عند هبل بالكعبة سبعة أقداح مكتوب على كل منها كلمة :

١- العقل — أي الدية ٢- نعم ٣- لا ٤- منكم ٥- ملصق ٦- من غيركم ٧- المياه

obeikandi.com

٩ - " اذهبوا فأنتم الطلقاء "

يعتبر فتح مكة حادثاً فريداً في تاريخ الفن الحربي ؛ فخطة الفتح قد وضعت بدقة بحيث يتم تسليم العدو بدون قتال ، ويتم دخول مكة بدون مقاومة جماعية ، وروعة هذه الخطة في أنها قد بنيت على حقن الدماء . ودماء من ؟ دماء هؤلاء الذين تفننوا في تعذيب المستضعفين بمكة ، بالبأسهم دروع الحديد في الشمس المحرقة ، وإلقائهم تحت الحجارة على الرمال الساخنة ، وكيهم بالنار ، وخنقهم بالدخان ، ووخزهم بالرماح والحراب ... هؤلاء الذين يحرص رسول الله ﷺ على حقن دمائهم : هم الذين صادروا بالأمس أموال المسلمين ، وأخرجوهم من ديارهم ، وحاولوا بعد ذلك استئصالهم .

ومكة بلد حصين منيع ، يسهل على أية قوة أن تقف على مداخله وتصد عنه أي هجوم ، ويسهل عملية الدفاع عدم وجود مناطق مجاورة لها تستطيع القوات المحاصرة أن تعتمد عليها في عمليات التموين ، مما يجبر المهاجم على فك الحصار إذا طال المكث ، أضف إلى ذلك بعد الشقة بين مكة وبين مركز القوات الإسلامية - المدينة - ؛ ومما يجعل عملية المحافظة على دماء الفريقين من العمليات التي تدخل في نطاق المستحيلات ، ذلك التوتر الشديد الذي يدفع المشركين إلى الاشتباك مع المسلمين - ولو تأملنا خطة الفتح للاحظنا : -

١- السرية التامة في تجهيزها ، وذلك بغلق الطرق المفضية إلى مكة وحراستها .

٢- السرعة ، سواء في إعداد الجيش أو في الحركة ، فبالرغم من كثرة العدو ، وصعوبة المواصلات ، كان الجيش الإسلامي يقطع بمعدل خمسين كيلومترا يوميا ، وهذا أقصى ما تسمح به قدرة الجيش مع المحافظة على راحته .

٣- اشترك القبائل في الجيش الإسلامي مثل أسلم وسليم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع وتميم وقيس وأسد ، والحكمة في ذلك إرهاب أهل مكة بكثرة العدد المناسب في ذلك الوقت ، وليبأسوا من التفاف العرب حولهم وليشهد رجال القبائل انهيار الأوثان بأعينهم .

٤- عسكر المسلمون في مر الظهران قرب مكة ، وكان المعسكر الإسلامي في الحل ، وفي موضع صالح للقتال إن حدث قتال ، و قد أعلن الجيش الإسلامي عن قدومه بإشعال النيران ليلا - فقد كان الفتح في شهر يناير أي في فصل الشتاء - وذلك بصورة توعد إلى المشاركين بكثرة عدد الجيش الفاتح .

٥- قبض على زعيم المقاومة في أسرع وقت ممكن ، ولم يسعه سوى الإسلام ، وبذا انهار أهم ركن من أركان المقاومة .

٦- أعلن الأمان العام لأهل مكة .

٧- وزعت القوات الإسلامية لتدخل مكة من جميع منافذها الغربية والشمالية والجنوبية أما الشرقية فكان يحميها جبل أبي قبيس والخدمة وهذا التوزيع يكفل تفتيت المقاومة الداخلية إن وجدت ، و توزيعها وتشتيتها والحيلولة دون تكتلها .

٨- كان قواد الفرق الفاتحة :

أ- ممن امتازوا بالشجاعة والسرعة وحسن التصرف .

ب- كانوا من المهاجرين ، ولو كانوا من الأنصار لجاز أن يستثيروا الحماس القبلي في النفوس .

فكانت الفرق بقيادة : علي بن أبي طالب ، والزبير بن العوام قائد الجناح الأيسر ، وأبو عبيدة عامر بن الجراح قائد القلب ، وخالد بن الوليد قائداً للجناح الأيمن ، وقاد رسول الله ﷺ ساقة الجيش . وواجه خالد المقاومة التي تجمعت ناحية الخندمة ومن زعمائها عكرمة بن أبي جهل وهو مخزومي مثل خالد ، وقد شنتها خالد بسرعة وسهولة .

٩- صدرت التعليمات لجميع القوات بالاتجاه نحو الحرم ، لسرعة تحطيم الأصنام وهي الحجة الأساسية التي تتكئ عليها المقاومة .

وتم الفتح بسلام ، وتجمعت القوات الإسلامية ناحية الصفا ، وطاف رسول الله ﷺ بالبيت على راحلته ولم يكن محرماً ، وكان في يده قوس يشير به إلى الأصنام ، وأحياناً يطعنهما فتتساقط^(١) وهو يقول ﴿ جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ﴾^(٢) . ﴿ جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد ﴾^(٣) فلما أكمل الطواف ، دعا عثمان بن طلحة فطلب منه مفتاح الكعبة ، فذهب عثمان إلى دار طلحة بمكة ، وكان عثمان قد أسلم في هدنة الحديبية ، فطلب من أمه

(١) أخرج البخاري ومسلم والبخاري والطبراني وأبو يعلى عن جابر وعبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنهما قالاً (كان حول البيت ستون وثلاثمائة صنم مثبتة الأرجل بالرصاص في الحجارة ، فلما دخل رسول الله ﷺ المسجد عام الفتح جعل يشير بقضيب في يده إليها ولا يمسه ويقول " جاء الحق وزهق الباطل " فما أشار إلى وجه صنم إلا وقع لقفاه ، ولا لقفاه إلا وقع لوجهه حتى ما بقي منها صنم) وفي رواية لابن مسعود فجعل يطعنهما ويقول " جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد " ويؤخذ من الروايات أنه صلوات الله وسلامه عليه كان يشير إلى بعضها من غير مس ، وتارة يطعنهما وتارة يتلو هذه الآية إذا أشار إليها ، وتارة يتلو تلك كلها إذا طعنها .

(٢) سورة الإسراء (٨١) .

(٣) سورة سبأ (٤٩) .

مفتاح الكعبة فأبت أن تعطيه إياه فقال : والله ^(١) لتعطينه أو ليخرجن هذا السيف من صلبى " فأعطته إياه ، وهو يهددها ليريها أنه صادق جاد فيما طلب ، ويعلم أنها سترجع عن رفضها . فجاء به وسلمه لرسول الله ﷺ ففتح الباب ، وبعد تطهيرها من الصور والأصنام دخلها ﷺ ودخلها معه أسامة ابن زيد وبلال وعثمان بن طلحة ، فدار ﷺ في جوانبها يكبر الله تعالى ويتأكد من خلوها من كل دليل يدل على الشرك ، فوجد حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها ، وأمر بإزالة صور الملائكة ، ولما رأى صورة لإبراهيم الخليل عليه السلام تصوره وفي يده الأزام يستقسم بها قال ﷺ : ما شأن إبراهيم والأزام ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ^(٢) .

وأمر بطمس جميع الصور كلها . وبعد أن صلى داخل البيت طلع على الناس وقد امتلأ المسجد فوقف على الباب وأخذ بعضادتيه فخطب فقال (لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة ^(٣) البيت وسقاية الحاج ، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا ، ففيه الدية مغلظة : مائة من الإبل ، أربعون منها في بطونها أولادها ، يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وتعظمها بالآباء : الناس من آدم وآدم من تراب ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ ^(٤)) ثم قال يا معشر قريش : ما ترون أني فاعل بكم .

(١) من حديث رواه مسلم عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما .

(٢) سورة آل عمران (٦٧) .

(٣) خدمة البيت .

(٤) سورة الحجرات (١٣) .

قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم .

قال ﷺ : اذهبوا فأنتم الطلقاء^(١) .

ولك أن تتأمل ما شئت في سمو هذا العفو الجماعي عن وقفوا موقف الخصومة المغالية في العنف بالأمس ، ولك أن تقارن هذه المساحة بما سجله التاريخ من جرائم قد ارتكبت باسم الدين أو باسم السياسة ، ولك أن تراجع هذه الوحشية التي طغت على أوروبا والتي أشعلها الصراع الديني : ففي إنجلترا حاولت ماري الدموية ١٥٥٣-١٥٥٨م إعادة الإنجليز إلى حظيرة الكاثوليكية فصبت العذاب صبا على من خالفها ، ومن وسائل التعذيب التي استخدمت عامود الحرق^(٢) الرهيب ، هذا عدا المصادرة والنفي ، وتجريد كل من يتهم بالهرطقة من الحياة ولو لأسباب لا تمت إلى الهرطقة بصلة . وتأمل ما حدث في حرب الثلاثين عاما ١٦١٨-١٦٤٨ إذ نشبت حروب دينية متصلة مروعة بين الأباطرة تعززهم الولايات الألمانية الكاثوليكية وبين الولايات البروتستانتية تعززها الدول التي تدين بهذا المذهب : إنجلترا ، هولندا ، الدانمرك ، السويد . وراح ضحيتها مئات الألوف. وتأمل ما صنعته محاكم التفتيش على عهد فرديناند وإيزابيلا ملكي أسبانيا ثم على عهد الإمبراطور شارل الخامس ١٥١٩-١٥٥٦ ثم ابنه فيليب الثاني الذي ورث أسبانيا وأمريكا الجنوبية ، واقرأ ما ارتكبته هذه المحاكم من فظائع تقشعر لها الأبدان . إذ كانت تسلم ضحاياها إلى الآلات الجهنمية تعصرهم عصرا وتمزقهم إربا : مثل الآلات الضاغطة ، وأجهزة المط التي تمط أطراف الإنسان حتى تقطع أوصاله ، وآلات السحق) " و هي ثقل ينزل على الإنسان

(١) أي الذين أطلقوا فلم يسترقوا ولم يؤسروا .

(٢) يربط من ينفذ فيه الحكم بعامود على ارتفاع مترين من الأرض ويلف بالسلاسل ويربط تحت ذراعيه سلالا مملوءة بالبارود ، ويوضع تحت كومة من الخشب تشعل فيها النار ولا يزال الشخص يتعذب بالنار حتى يصل اللهب إلى البارود فينفجر وينسفه .

وهو ممدد مقيد فيسحقه " وآلات الفصل ، وآلات الماء : إذ توضع الرأس داخل إطار ويفصل الفك بقطعة من الحديد ويقوم جهاز بتقطير الماء في الفم حتى يختنق الشخص الخ ...

أما في الحروب السياسية فما يُرتكب أدهى وأمر وكأن الإنسان لا هم له ولا شاغل إلا التفتن في تعذيب الإنسان ، ولم يدر هؤلاء أن للإنسانية حقوقاً تجب مراعاتها مهما بلغت الخصومة .

أفيسطيع أمثال هؤلاء أن يتبعوا القواعد السامية التي وضعها رسول الله ﷺ لمراعاتها في الحروب ؟!

بل إن هذا العفو المحمدي قد اقترن بما لا يصدر إلا عن مرتبته صلوات الله وسلامه عليه فقط ، إذ لم يرَدَ ﷺ على المهاجرين دورهم التي أخرجوا منها وتركها في أيدي الذين أخرجوهم ، وأقرهم على تصرفاتهم فيها من بيع أو شراء أو سكنى أو انتفاع بها ، وقضى ﷺ أن من أسلم على شيء فهو له .

لما هاجر أبو أحمد عبد بن جحش وكان متزوجاً من الفارعة بنت أبي سفيان ، عدا أبو سفيان على داره وباعها ، فلما كان الفتح جاء أبو أحمد إلى رسول الله ﷺ فكلمه في رد داره إليه . فأبى عليه رسول الله ﷺ ، وفهم الناس ما يريد . فقالوا لأبي أحمد : يا أبا أحمد إن رسول الله ﷺ يكره أن ترجعوا في شيء من أموالكم أصيب منكم في الله عز وجل " فأمسك عن كلام رسول الله ﷺ .

وروى البخاري عن أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما أنه قال زمن الفتح "يا رسول الله ، أين تنزل غدا ؟ قال النبي ﷺ (وهل ترك لنا عقيل من منزل) فقد عمد عقيل بن أبي طالب بعد هجرته ﷺ إلى جميع رباع أبي طالب بمكة فاستولى عليها ، ثم أسلم وهي في يده .

وأبقى ﷺ سدانة الكعبة لمن كانوا يقومون بها :

روى ابن سعد في الطبقات عن عثمان^(١) بن طلحة قال " كنا نفتح الكعبة في الجاهلية يوم الاثنين والخميس . فأقبل النبي ﷺ يوما يريد أن يدخل الكعبة مع الناس — وذلك قبل الهجرة — فأغلظت له ونلت منه فحلم عني . ثم قال : (ياعثمان ، لعلك ستري هذا المفتاح يوما بيدي أضعه حيث شئت) . فقلت : لقد هلك قريش يومئذ وذلت . فقال ﷺ (بل عمرت وعزت يومئذ) .

ولما كان يوم الفتح جلس رسول الله ﷺ في المسجد بعد أن فرغ من خطابه للناس فقام إليه علي بن أبي طالب ، ومفتاح الكعبة في يده ﷺ فقال : يا رسول الله ، أجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك . فقال رسول الله ﷺ : أين عثمان بن طلحة؟ فدُعِيَ له . فقال : (هاك مفتاحك يا عثمان . اليوم يوم بر ووفاء . ثم قال خذوها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم . يا عثمان إن الله استأمنكم على بيته فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف) .

قال عثمان : فلما وليت ناداني فرجعت إليه فقال ﷺ : (ألم يكن الذي قلت لك؟ قال : فذكرت قوله لي بمكة قبل الهجرة . قلت : بلى أشهد أنك رسول الله.) وبقي عثمان في سدانة الكعبة حتى استشهد بأجنادين في خلافة عمر فتولاها ابن عمه شيبه بن عثمان بن أبي طلحة وهو جد بني شيبه حجة الكعبة.

(١) أسلم في هدنة الحديبية وشهد الفتح وهو من بني عبددار وكان لهم دار الندوة . واللواء والسدانة . فلما فتحت مكة محا الإسلام الندوة واللواء .

obeikandi.com

١٠ - " مرحبا بالمهاجر "

لا شيء أوقع في النفس من مقارنة تجربها بين أهل الحق وأهل الباطل ؛ هذه المقارنة كلما اشتد عمقها كلما أيقظت في النفس استعداداتها الكامنة وبعثتها من رقدتها لتبذل جهدها في سبيل الوصول إلى الحق ، وإن أسعد لحظات الإنسان فهي اللحظة التي تتفتح فيها عين بصيرته على هول الباطل الذي كان يقارفه فيخرج منه دفعة واحدة ليهتدي بنور الحق الساطع حينئذ يتضح له أن أتعس ساعاته فهي الساعات التي كرس فيها قواه لخدمة الباطل ونصرته ، فكان خلال هذه اللحظات لا يستمرئ إلا الشر ولا يطيق الخير أينما كان " وإن شر الناس من مات على هذه الحالة " .

برز اثنان من بني مخزوم في الصد عن سبيل الله تعالى :

أبو جهل (أو أبو الحكم) عمرو بن هشام بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم . وعمه الوليد بن المغيرة .

وقد ذهب الصلف والكبر والتعالي بالوليد إلى أن يزعم أنه أحق الناس بالنبوة! مع أن ادعاءه هذا يجعله أبعد الناس عن الخير فضلا عن الصلاح فضلا عن النبوة .

فكان يقول " أنزل القرآن على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها " وهو من التلبيس الذي يلقيه الزعماء لينقاد لهم العامة إذ يخاطبونهم طبقا لما ألفوه من تقاليد مزيفة وقد حكى القرآن العظيم ما قالوه : قال الله تعالى ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ - ٣١ - سورة الزخرف . ومقياس العظمة التي ينوهون بها : هو الثراء وكثرة العدد وفرض السلطة على الغير والاشتهار بالجبروت والقوة والتفاني في عبادة التقاليد مهما كان زيفها ، هذه المقاييس المزيفة لا تصلح معياراً لأي صلاح مهما وحيثما كان ، أما احتجاجهم على اختصاص الله تعالى لمن يشاء برسالاته فهذا تحكم فيما

لا يملكه أحد إلى الله سبحانه وتعالى ﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ - من الآية ١٢٤ - سورة الأنعام . فمقام الرسالة من الرفعة والعلو بحيث أن لا يسامي ويقتضي من الاستعدادات الشخصية والخلقية والعقلية والروحية ما يليق بسمو هذه المرتبة وما يتلاءم وجلال الوحي وهذا ما لا يعلمه إلا الخالق عز وجل . أما العظمة التي تقتضيها مقاييس البشر إذا انحطوا عن مرتبة الإيمان بالله تعالى : فهي العظمة في التخريب والتدمير والسلب والنهب والفساد ، العظمة في الشر والانحطاط لا في الخير والكمال .

والوليد هذا هو الذي اختارت قريش ابنه عمارة لتسليمه لأبي طالب في مقابل تسليمه إياهم لرسول الله ﷺ . ولعل هذا الطموح في نفس الوليد هو الذي أوحى إليه بهذه الفكرة الشيطانية : إذ توجه وفد قريش إلى أبي طالب ليعرضوا عرضهم الخبيث فقالوا " يا أبا طالب : هذا عمارة بن الوليد أنهد^(١) فتى في قريش وأجمله فخذ فلك عقله ونصره واتخذه ولدا فهو لك . وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي خالف دينك ودين آبائك ، وفرق جماعة قومك وسفه أحلامهم فنقتله فإنما هو رجل برجل " ولا يخفى ما في هذا من القول السم الزعاف : من استشارة لأبي طالب ، وهذا ما تحمله كلمات معينة مختارة منتقاة : مثل : دينك - دين آبائك - قومك - سفه أحلامهم ! حقا إن الشر هو الشر في كل زمان ومكان ، ولا يعجز أهل الباطل في زخرفة ضلالهم ووضع الشعارات المزيفة عليه ، وصبه في قوالب معسولة ليصلوا إلى مرامهم الخبيثة .

ولم يفت مرامهم على ذكاء أبي طالب فأجاب " والله لبئس ما تسومونني^(٢) ! آخذ ابنك أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه ! هذا والله لا يكون أبدا " .

وأراد الوليد بن المغيرة أن يوحد رأي المشركين في رسول الله ﷺ حتى لا يختلفوا في القول أمام العرب : فقال : " يا معشر قريش إنه قد حضر هذا الموسم ، وأن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بصاحبكم هذا ،

(١) أقوى .

(٢) تكفونني .

فأجمعوا رأيا واحداً ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ، ويردُّ قولكم بعضه بعضاً .

قتل الإنسان ما أكفره يخشى أن يكذبه الناس ولا يخشى الله تعالى إذ يكذب ما أنزله من الحق .

قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس فقل ، وأقم لنا رأياً نقول به .

فلم يقبل أن يبدأ برأيه فيكون موضع نقاش ، بل أراد أن يعقب برأيه على آرائهم فيكون رأيه هو الأخير وهو الناقد فقال : بل أنتم فقولوا اسمع .

قالوا : نقول كاهن !

قال : لا والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه .

قالوا : فنقول مجنون !

قال : ما هو مجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو يخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته .

قال : فنقول : شاعر !

قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر .

قالوا : فنقول : ساحر !

قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السحرة وسحروهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم .

قالوا : وقد فرغ ما عندهم : فما نقول يا أبا عبد شمس !

قال : والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لمغدق ، وإن فرعه لجناة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل — وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر ! جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجته وبين المرء وعشيرته .

لقد جاء المشركون بجميع العقائد الفاسدة التي جعلت النبوة خليطاً من السحر والكهانة والشعوذة والإبهام والجنون المقدس ، هذه النبوة التي لا تدور إلا على إدعاء ما هو خارق وما ليس بخارق ، وتتكلن بالغيب وما هو بغيب . وقد أقر الوليد نفسه بفساد هذه المعايير واختار واحداً منها لا عن طريق الاعتباط بل عن قصد يمتلى دهاءاً ومكراً ، فجاء بالقول الذي لا يطالبون فيه بدليل ، ولا يفنده إلا من كان متصلاً بالمسلمين أنفسهم ، ومن هنا تظهر خطتهم في إقامة رقابة شديدة حتى لا يتم أو على الأقل لا يكثر هذا الاتصال .

فتفرقوا عنه ، وجعلوا يجلسون لمن يقدم الموسم من العرب فلا يمر بهم ركب إلا حذروهم وزينوا لهم الابتعاد عن رسول الله ﷺ ، فما زادوا بما فعلوه من شأن الإسلام إلا ظهوراً إذ انتشرت أخباره بين قبائل العرب كلها .

ولو تدبر هؤلاء ما دار في مجلسهم لوجدوا أنهم قد اعترفوا بالرسالة المحمدية إذ عجزوا عن ضرب الأمثال لرسول الله ﷺ كما أقرّوا بالإعجاز القرآني ولكنها لا تعمى الأبصار بل تعمى القلوب التي في الصدور .

هذا عن الوليد عم أبي جهل .

أما أبو جهل فقد كرس حياته يتفنن في محاربة الله تعالى ورسوله صلوات الله وسلامه عليه والمؤمنين !

وقد اعتبر كعمه أن النبوة شرف ناله بنو عبد مناف يجب أن يدركه بنو مخزوم لأنه لا يقلون عنهم شرفاً !

قال ابن اسحق :

إن أبا سفيان بن حرب ، وأبا جهل بن هشام ، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي حليف بني زهرة : خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه ، وكل

لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا . فجمعهم الطريق فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً ، ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ، ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود ، فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا .

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها ، وأعرف ما يراد بها ، و سمعت أشياء ما عرفت معناها ، ولا ما يراد بها ؛ قال الأخنس : وأنا والذي حلفت به كذلك.

قال : ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته فقال : يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فأضرب عن الإجابة وتحسس موطن الداء عنده فقال: ماذا سمعت ! تتازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف :

أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا^(١) على الركب وكنا كفرسي رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء . فمتى ندرك مثل هذه ! والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه .

والرجل في عداوته قد جن جنونه حتى لقد أصبح يبغض النبوة لذاتها ويتحسس كل شيء ليطعن فيها .

(١) جثونا .

كان أبوسفیان عائدا بقافلة لقريش من الشام ، وعلم بخروج المسلمين في طلبه فأرسل ضمضم بن عمرو الغفاري إلى قريش ليستنفرهم للخروج لحماية تجارتهم.

وقبل وصول ضمضم إلى مكة بثلاث ليال كانت عاتكة بنت عبدالمطلب قد رأت رؤيا أفزعها ، بعثت إلى أخيها العباس بن عبد المطلب تطلبه ، فحضر ، فقالت له " يا أخي ، والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفزعنتي ^(١) ، وتخوفت أن يدخل علي قومك منها شر ومصيبة ، فاکتم عني ما أحدثك به " فقال لها : وما رأيت ؟ قالت : رأيت راكبا أقبل على بعير له ، حتى وقف بالأبطح ، ثم صرخ بأعلى صوته : ألا انفروا يا آل غدر ^(٢) لمصارعكم فأرى الناس اجتمعوا إليه ، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه ، فبينما هم حوله مثل ^(٣) به بعيره على ظهر الكعبة ، ثم صرخ بمثلها : ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم في ثلاث ، ثم مثل به بعيره على رأس أبي قبيس ^(٤) فصرخ بمثلها . ثم أخذ صخرة فأرسلها . فأقبلت تهوي ، حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضت ^(٥) ، فما بقي بيت من بيوت مكة ولا دار إلا دخلتها منها فلفة . " قال العباس : والله إن هذه لرؤيا ^(٦) ، وأنت فاكتميها ولا تذكرها لأحد .

ولكن العباس حدث بها الوليد بن عتبة بن ربيعة واستكتمه إياها ، فذكرها الوليد لأبيه ففشا الحديث عنها بمكة ، وتحدثت بها قريش في أنديةها .

(١) أفزعنتي .

(٢) جمع غادر .

(٣) قام .

(٤) جبل يشرف على مكة من ناحيتها الشرقية .

(٥) تبعثرت قطعاً .

(٦) يتعجب منها .

قال العباس : فغدوت لأطوف بالبيت ، وأبو جهل بن هشام في رهط من قريش قعود يتحدثون برؤيا عاتكة . فما رآني أبو جهل قال : يا أبا الفضل : إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا . فلما فرغت أقبلت حتى جلست معهم . فقال لي أبو جهل: يا بني عبدالمطلب : أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم ! قد زعمت عاتكة في رؤياها من قال : انفروا في ثلاث ، فسنتربص بكم هذه الثلاث ، فإن يك حقاً ما تقول فسيكون ، وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيء ، نكتب عليكم كتاباً أنكم أكذب أهل بيت في العرب .

قال العباس : فوالله ما كان مني إليه كبير^(١) ، إلا أنني جحدت ذلك وأنكرت أن تكون رأيت شيئاً .

قال : فلما أمسيت لم تبق امرأة من بني عبدالمطلب إلا أتتني فقالت : أقررت لهذا الفاسق الخبيث أن يقع في رجالكم ، ثم قد تناول النساء وأنت تسمع ، ثم لم يكن عندك غيرة لشيء مما سمعت ! قال : قلت : قد والله فعلت ، ما كان مني إليه كبير ، وأيم الله لأتعرضن له ، فإن عاد لأكفينكته .

قال : فغدوت في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة ، وأنا حديد مغضب أرى أنني قد فاتتني منه أمر أحب أن أدركه منه . قال : فدخلت المسجد فرأيت ، فوالله إني لأمشي نحوه أتعرضه ، ليعود لبعض ما قال فأقع به ، وكان رجلاً خفيفاً ، حديد الوجه ، حديد اللسان ، حديد النظر . قال : إذ خرج نحو باب المسجد يشتد قال : فقلت في نفسي : ماله لعنه الله ! أكل هذا فرق^(٢) مني أن أشاتمته ! قال : وإذا هو قد سمع ما لم أسمع : صوت ضمضم بن عمرو الغفاري وهو يصرخ ببطن الوادي واقفاً على بعيره ، قد جدع بعيره ، وحول رحله ، وشق

(١) لم أزجره ولم أقع به .

(٢) خوف وفزع .

قميصه وهو يقول : يا معشر قريش : اللطيمة ، اللطيمة ، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه ، لا أرى أن تتركوها ، الفوت. الفوت. قال : فشغلني عنه وشغله عني ما جاء من الأمر .

ولما نزلت قريش بالجحفة في مسيرها إلى بدر رأى جهيم بن الصلت من بني المطلب بن عبد مناف رؤيا : قال " أقبل رجل على فرس حتى وقف ومعه بعير له ، ثم قال : قتل عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، وأبو الحكم بن هشام وأممية بن خلف وعد رجالا ممن قتل يوم بدر . قال ثم ضرب في لبة^(١) بعيره وأرسله في العسكر ، فما بقي خباء إلا أصابه نضح من دمه فلما سمع بها أبو جهل قال : وهذا أيضا نبي آخر من بني عبد المطلب ! سيعلم غدا من المقتول إن نحن التقينا .

وما كان لأحد أن يعلق النبوة برؤيا يراها إنسان آخر أيا كان ولكن أبا جهل لا تمر عليه مناسبة إلا ويستغلها في الصد والتشنيع .

وكان رسول الله ﷺ قبل الهجرة يقصد البيت الحرام دائما حيث يكثر الطائفون من جميع جهات بلاد العرب ، فكان أبو جهل يربط هو وأكابر مجرميها في دار الندوة وكانت مطلة على الكعبة أو يجلسون قرب الكعبة نفسها ليحولوا دون اتصال الناس برسول الله ﷺ .

كان رسول الله ﷺ بالبيت ومعه أبو بكر وعثمان بن عفان رضي الله تعالى عنهما ، وكان يجلس في الحجر عقبة بن أبي معيط وأبو جهل وأممية بن خلف، فلما حاداهم رسول الله ﷺ أسمعوه ما يكره ثم قال أبو جهل : والله لا نصالحك ما بل بحر صوفة وأنت تنهى أن نعبد ما يعبد آبائنا ، ثم وثب ثلاثتهم يريدون رسول الله ﷺ فدفعهم عنه ﷺ هو وصاحبه رضي الله تعالى عنهما ثم قال لهم " أما والله لا تنتهون حتى يحل بكم عقابه عاجلا " . وقد قتل الثلاثة في بدر .

(١) ضرب بالسكين في موضع الذبح .

وكان إذا بلغه إسلام رجل له شرف ومنعة ذهب إليه ووبخه وقال " تركت دين أبوك وهو خير منك ! لنسفهن حلمك ولنفيين - أي نخطئن - رأيك ، ولنضعن شرفك" وإن كان تاجراً قال " والله لنكسدن تجارتك ولنهلكن مالك" وإن كان ضعيفاً عذبه أو أغرى به من يعذبه .

أسلم آل ياسر قديماً : عمار وأبوه ياسر بن عامر العنسي وأم عمار : سمية بنت خياط . وكان ياسر حليفاً لأبي حذيفة المغيرة عم أبي جهل .

فكان أبو جهل يتسلى بتعذيب آل ياسر حتى مات ياسر من شدة العذاب ثم استشهدت زوجته السيدة سمية رضي الله تعالى عنها إذ طعنها أبو جهل ، وبقي عمار يصارع صنوف العذاب ألواناً ، ليسجل لنا التاريخ ما تفعله البشرية المتوحشة بالإنسان المؤمن ، وما يرتكبه أهل الضلال بمن استمسك بشريعة الله التي لا انفصام لها ولا زوال .

كان العذاب ينصب انصباباً على بدن عمار فيمتصه إيمانه الكبير بالله تعالى . وذهب العذاب وبقي أيمان عمار . بل لعل هذا العذاب قد دفع روح عمار إلى العروج في مراتب من الكمال قلما يصلها إنسان لم يتعرض لما تعرض له عمار ، ولم يبلغ مرتبته في الإيمان .

عن علي رضي الله تعالى عنه قال : إن عمار بن ياسر جاء يستأذن في الدخول على رسول الله ﷺ فقال ﷺ (" ائذنوا له . مرحباً بالطيب ابن الطيب " وفي رواية بالطيب المطيب .) وعن خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه قال : كان بيني وبين عمار كلام فأغلظت له ، فشكاني إلى النبي ﷺ فجنبت إلى النبي ﷺ وهو يشكوني إليه فجعلت أغلظ له القول والنبي ﷺ ساكت لا يتكلم ، حتى بكى عمار ، وقال يا رسول الله : ألا تراه ؟ (فرفع ﷺ رأسه وقال " من عادى عماراً عاداه الله ، ومن أبغض عماراً أبغضه الله ،) قال خالد : فخرجت فما كان شيء أحب إلي من رضا عمار فاسترضيته حتى رضي .

وأسلم أخو أبي جهل لأبيه : سلمة بن هشام بن المغيرة فاضطهده هو وبنو مخزوم اضطهادا شديدا حتى هاجر إلى الحبشة ثم عاد منها وأقام في مكة ولما أراد الهجرة إلى المدينة حبسه أبو جهل وعمه الوليد وحبسا معه عياش بن أبي ربيعة المخزومي، ولم يستطع سلمة مغادرة مكة إلا بعد مصرع أبي جهل و وفاة الوليد .

ولما تعاقدت قريش على مقاطعة بني هاشم في الشعب حتى يُسلموا رسول الله ﷺ للقتل ، كان أبو جهل يراقب كل من يشم فيه رائحة العطف على بني هاشم ليمنعه من الاتصال بهم وتهريب المؤونة إليهم — وكانت شدة رقابته من بين الأسباب التي أدت إلى تكوين العناصر المعارضة لحلف المقاطعة — قبض أبو جهل ذات مرة على حكيم بن حزام وهو يرسل الطعام لعمة أم المؤمنين السيدة خديجة رضي الله تعالى عنها فتشادا معا وحضرهما أبو البختري بن هشام وكان موافقا على ما صنعه حكيم بن حزام ، فاشتبك مع أبي جهل وشدخ رأسه وكادت الأمور أن تتطور لولا دهاء أبي سفيان الذي رأى من الحكمة إخماد الفتنة قبل اشتعالها وأطلق حكيم بن حزام .

وحاول أبو جهل أن يقتل رسول الله ﷺ : فجمع كبار قريش وقال (يا معشر قريش إنني أعاهد الله لأجلسن له غدا بحجر ما أطيق حمله فإذا سجد في صلاته فضخت — أي شدخت — رأسه فأسلموني عند ذلك أو امنعوني ...) ولما ذهب لينفذ جريمته العظمى سقط منه الحجر وفر وهو يردد من هيبه رسول الله ﷺ .

ولكنه إذ عجز بمفرده عن اغتيال رسول الله ﷺ انتظر حتى وافته الفرصة ليدير عملية الاغتيال بشكل جماعي .

خافت قريش هجرة رسول الله ﷺ لئلا تصبح دار الهجرة حصنا للإسلام و المسلمين ومركزا ينتشر منه الإسلام فيعم العرب جميعا . فاجتمع الملاء من قريش في دار الندوة ، وأخذوا يقلبون الآراء رأيا بعد رأي وهم لا يرتضون

واحدا منها حتى قال أبو جهل (والله إن لي فيه لرأيا ما أراكم وقعتم عليه بعد. قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟ قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابا جلدا نسييا وسيطا — أي شريفا فينا ! ثم نعطي كل فتى منهم سيفا صارما ، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعها ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا ، فرضوا منا بالعقل — أي الدية — فعقلناه لهم) فوافقوا على رأيه وتفرقوا على ذلك وهم مجمعون عليه .

وفي ليلة الهجرة نفّذوا ما أجمعوا عليه ، ولكن رسول الله ﷺ خرج من بيته على القنلة ولم يروه واكتشف القنلة بعد فوات الوقت أن الذي نام في فراش رسول الله ﷺ هو علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه . فرجعوا وأخبروا زعماء قريش ، فتوجه نفر فيهم أبو جهل إلى منزل الصديق الأكبر رضوان الله تعالى عليه ، فخرجت لهم ابنته أسماء " فقالوا لها : أين أبوك يا بنت أبي بكر؟. قالت : قلت : لا أدري والله أين أبي . فرفع أبو جهل يده وكان فاحشا خبيثا فلطم خدي أسماء لطمه طرح منها قرطها ثم انصرفوا .

وظهر تشفي أبي جهل في موقفه بعد نجاة العير التي يقودها أبو سفيان إذ أصر على المسير لقتال المسلمين بالرغم من مخالفة زعماء قريش لرأيه وهذا يدلنا على مقدار تحكمه في قريش :

لما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره أرسل إلى قريش يقول " إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم ، فقد ناجها الله ، فارجعوا ، فقام أبو جهل في قريش فقال : " والله لا نرجع حتى نرد بدرا فنقيم عليه ثلاث ، فننحر الجزر ، ونطعم الطعام ، ونسقي الخمر ، وتعزف علينا القيان — أي الجواري — وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبدا بعدها ، فأمضوا . "

فقام الأخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة وكان فيهم مطاعا فنأدى فيهم بالرجوع " فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا في غير منفعة ، لا ما يقول هذا يعني أبا جهل ، فرجعوا معه .

وكان في الإمكان العودة إذ لم تبتعد قريش عن مكة فقد لحقهم رسول أبي سفيان على مسيرة ١٢٠ كم منها . ولكن أبا جهل تمكن من جرهم إلى الحرب فطالما تشوق إلى الدماء .

ونزل المشركون بالعدوة القصوى من الوادي ناحية مكة ونزل المسلمون بالعدوة الدنيا من بدر ناحية المدينة . ورأى رسول الله ﷺ عتبة بن ربيعة على جمل له أحمر فقال " إن يكن في أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر ، إن يطيعوه يرشدوا .

وأرسلت قريش عمير بن وهب الجمحي ليحرز لهم عدد المسلمين ، فجال بفرسه حول معسكرهم ورجع فقال : ثلاثمائة رجل يزيدون قليلا أو ينقصون ثم عاد لبيحث في الوادي لينظر هل هناك من كمين أو مدد آخر ورجع فقال " ما وجدت شيئا ولكني قد رأيت يا معشر قريش البلبايا تحمل المنايا ، نواضح — إبل — يثرب تحمل الموت الناقع ، قوم ليس معهم منعة ولا منجأ إلا سيوفهم والله ما أرى أن يقتل رجل منهم ، حتى يقتل رجلا منكم ، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك ؟ فأروني رأيكم .

فلما سمع حكيم بن حزام مقالته ، أتى عتبة بن ربيعة فقال : يا أبا الوليد إنك كبير قريش وسيدها ، والمطاع فيها ، هل لك إلى أن لا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر ؟ قال : وما ذاك يا حكيم ؟ قال : ترجع بالناس ، وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي : قال : قد فعلت ، أنت عليّ بذلك ، إنما هو حليفي ، فعلي عقله ، وما أصيب من ماله ، فأت ابن الحنظلية^(١) فإني لا أخشى أن يشجر^(٢) أمر الناس غيره .

(١) الحنظلية هي أم أبي جهل واسمها أسماء بنت مخزبة التميمية .

(٢) يخالف .

ثم قام عتبة بن ربيعة في الناس فقال " يا معشر قريش ، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئا ، والله لئن أصبتموه ولا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه : قتل ابن عمه ، أو ابن خاله ، أو رجلا من عشيرته ، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب ، فإن أصابوه فذاك الذي أردتم وإن كان غير ذلك ألقاكم ولم تعرضوا^(١) منه ما تريدون . "

قال حكيم بن حزام : فانطلقت حتى جئت أبا جهل فقلت له : يا أبا الحكم إن عتبة أرسلني إليك بكذا وكذا الذي قال — فقال : انتفخ والله سحره^(٢) حين رأى محمدا وأصحابه ، كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد . وما بعتبة ما قال ، ولكنه قد رأى أن محمدا وأصحابه أكلة^(٣) جزور وفيهم ابنه فقد تخوفكم عليه . " ثم بعث إلى عامر بن الحضرمي فقال : هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس ، وقد رأيت تأرك بعينك ، فقم فانشد خفرتك^(٤) ، ومقتل أخيك . " فقام عامر يصرخ في الناس واعمره^(٥) ! فثارت ثائرة الشر في النفوس وأفسد على عتبة تدبيره . بل إن عتبة نفسه حين بلغه كلام أبي جهل عدل عن رأيه خوفا من اتهامه بالجبن قائلا سيعلم " من انتفخ سحره أنا أم هو " ! ولما التقى الجمعان قال أبو جهل (اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا يعرف فأحنه — أهلكه — الغداة) فكان هو الحاكم على نفسه بقتله .

(١) تناولوا .

(٢) السحر — الصدر — وانتفخ سحره أي جبن .

(٣) كناية عن قلتهم وضعفهم وهذا من دهاء أبي جهل فهو بعد أن اتهمه بالجبن ، نفاه عنه ، واتهمه بالخوف على ابنه أبي حذيفة بن عتبة وكان من المسلمين الأولين هاجر الهجرتين .

(٤) تأرك .

(٥) كانت سرية من المسلمين ترصد قريشا في نخلة — مكان بين مكة والطائف — وكانت السرية بقيادة عبدالله بن جحش ، فمرت بهم غير لقريش فيها عمرو بن الحضرمي وحدث اشتباك بين القوم قتل فيه عمرو بن الحضرمي .

وقد وضعت معركة بدر نهاية وحداً لحياة كلها دفاع عن الباطل وصراع في سبيل الصد عن سبيل الله تعالى ، حياة حالكة لا هدف لها سوى محاربة الله تعالى ورسوله صلوات الله وسلامه عليه ، إذ أسفرت عن مصرع الطاغية أبي جهل .

ورث عكرمة بن أبي جهل عن أبيه ميراثاً ثقيلاً : ورث عداوة المسلمين ممثلة في اسم أبيه الذي يحمله ، وورث الثأر ، ولم نقل ورث زعامة المقاومة لأن للزعامة شروطها عند العرب وهذه لم تتوافر إلا في أبي سفيان .

سار عكرمة على نهج أبيه في مقاومة الدعوة ومحاربتها إلا أنه لم يكن رئيساً بل مرؤوساً .

وكان على ميسرة المشركين في وقعة أحد ، وهو الذي قتل أمير الرماة عبدالله بن جبير رضي الله تعالى عنه . وحضر موقعة الخندق ، وكان أحد ستة يتناوبون مصاولة المسلمين كل يوم وهم : أبو سفيان — خالد بن الوليد — عمرو بن العاص — هبيرة بن أبي وهب — عكرمة — ضرار بن الخطاب — وكان كل منهم يتولاها يوماً . وكان من بين الفرسان القلائل الذين حاولوا اقتحام الخندق .

ولما أرسل الأحزاب إلى يهود بني قريظة يستنفرونهم لقتال المسلمين ، كان عكرمة هو ممثل قريش في هذه المهمة الخطيرة ، وقد تمكن نعيم بن مسعود الأشجعي رضي الله تعالى عنه من الإيقاع بين اليهود وبين الأحزاب ففشل هذا التحالف الغادر .

ولما كان يوم الفتح كان من بين الذين استثناهم إعلان الأمان العام : عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية .

وكانت قريش قد جنحت إلى التسليم ، ما عدا أوباشها الذين تزعمهم عكرمة وصفوان وسهل بن عمرو وحماس بن قيس أخو بني بكر الذي نقضوا هدنة الحديبية .

ماضٍ حالك رهيب كان يحول بين عكرمة وصفوان وبين التسليم ، ولما أظلم جيش رسول الله ﷺ اعتقدا أنهما مقتولان لا محالة ، فحاولا استثارة الناس للقتال فلم يتمكنوا ، إذ كان رسول الله ﷺ قد قطع على أمثال هؤلاء كل سبيل يسلكونه لإشعال الحرب .

فلم يظفرا إلا بجماعة من أوباش قريش والأحابيش ، وهداهم التفكير إلى أن يبدؤوا المعركة بهؤلاء فإذا ما استحر القتال ثارت حمية القوم واشتبكوا مع المسلمين . ولكن المقاومة لم تضع في حساباتها أن المسلمين سيدخلون مكة من جميع الجهات تقريبا مما يحول دون التجمع لأية مقاومة ، ومما يحصر أية حركة ويجعلها حركة محلية فقط .

وعسكرت المقاومة جنوبي مكة ناحية الخندمة فواجههم الجناح الأيمن بقيادة خالد بن الوليد الذي شنت المتظاهرين سريعا . وهرب صفوان وعكرمة ، أما حماس فإنه التجأ إلى بيته وأغلق عليه بابه ، فذكرته زوجته بما كان يقول قبل خروجه ، وكان قد وعدا بإحضار بعض الأسرى من المسلمين لخدمتها !.

فقال :

إنك لو شهدت يوم الخندمة	إذ فر صفوان وعكرمة
وأبو يزيد قائم كالموتمة	واستقبلتهم بالسيوف المسلمة
يقطعن كل ساعد وجمجمة	ضربا فلا يسمع إلا غممة
لهم نهيت خلفنا وهممة	لم تنطقي في اللوم أدنى كلمة

خرج عكرمة هاربا إلى اليمن ، وكانت زوجته أم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة قد أسلمت ، فاستأمنت له من رسول الله ﷺ ، وخرجت تطلبه وهي تعلم أين تجده . وأخبرته أم حكيم بعفو رسول الله ﷺ .

يا قريش ! ماذا فعل رسول الله ﷺ معهم حتى يلحقوا به وبالمسلمين كل إذية ممكنة ! وهل يستطيع أحد أن يبرر اضطهادهم لمجرد دعوتهم إلى الله سبحانه وتعالى ! كم ألبوا وكم تأمروا وكم نالوا من المسلمين ! وهاهو رسول الله ﷺ يعفو عنهم بعد أن تمكن منهم ، وظفر بهم .

وأمام هذا العفو المحمدي الكامل الذي يحسن إلى المسيء مهما كانت إساءته ، انهار سور العداوة الموروثة والثأر المتأجج الذي لا يقود إلا إلى شر بعد شر ، يا للإنسان حين تنقشع عنه حجب الباطل فيجد نفسه فجأة غارقا في أنوار الحق : ولو كان الخجل يقتل لخر الإنسان صعقا في هذه اللحظة .

عاد عكرمة مع زوجته إلى مكة ليرى هذه المرة رسول الله ﷺ ، و ما أن دخل مجلس رسول الله ﷺ حتى قام إليه واعتنقه قائلا " مرحبا بالمهاجر " ! .

يقول المصعب الزبيري^(١) " وزعم بعض أهل العلم أن قيام رسول الله ﷺ وفرحه به كان أن رسول الله ﷺ رأى في منامه أنه دخل الجنة فرأى فيها عذقا مدللا فأعجبه ، فقال : لمن هذا ؟ فقيل لأبي جهل . فشق ذلك عليه . وقال " وما لأبي جهل والجنة والله لا يدخلها أبدا " . فلما رأى عكرمة أتاه مسلما ، فرح به وتناول ذلك العذق عكرمة " .

ونرى أن هذا التعليل باطل لا وجه للصواب فيه ، والحقيقة أن قيام رسول الله ﷺ واحستفائه بعكرمة يحمل معان بالغة السمو : منها إزالة الأثر العالق في النفوس من مواقف عكرمة وأبيه ، فالإسلام يجب ما قبله ولا يحاسب الأبناء

(١) نسب قريش — ص ٣١١ .

بما فعل الآباء ، ولا يحاسب المؤمن على ما فعله قبل دخوله في الإسلام، فموقف أبي جهل ليس له أي أثر في مركز عكرمة بعد الإسلام . وهذا الاحتفاء هو الرد المحمدي على جميع ما يجول في خاطر عكرمة نفسه بل وخاطر غيره .

غادر عكرمة مكة بعد إسلامه ليباعد عن ذكريات تؤلمه إذا ثارت في نفسه ، واستقر في المدينة، فكان كلما مر بمجلس من مجالس الأنصار قالوا " هذا ابن أبي جهل! " وسبوا أبا جهل . فشكا ذلك لرسول الله ﷺ فقال ﷺ " لا تؤذوا الأحياء بسب الأموات " .

وإذا بعكرمة اليوم غيره بالأمس : إذا به بطل من الأبطال الذين أوقفوا أنفسهم على الجهاد في سبيل الله تعالى . لما ندب أبو بكر الناس لغزو الروم قدم الناس فعسكروا بالجرف على ميلين من المدينة ، وخرج أبو بكر الصديق يطوف بالمعسكر ويتفقد حالته ، ويعين المحتاج على التجهيز ، وفي طوافه وقف على خباء ترابط حوله ثمانية أفراس وبجواره عدة قوة للقتال وإذا به خباء عكرمة ، فسلم عليه أبو بكر ، وجّزاه خيراً لحسن استعداده ، وعرض عليه المعونة ، لما رآه من كثرة نفقته ، فقال (أنا غني عنها ، معي ألفا دينار فاصرف معونتك إلى غيري) لقد بذل عكرمة ماله في سبيل الله تعالى ، وآثر بالمعونة من هو أحوج إليها منه . أين هذا من تكالب الحاكم والمحكوم على جمع المال بأية وسيلة ومن أي طريق ، ثم صرفه في غير وجوهه ، ولا يصرف مال جمع بهذه الكيفية المتعسفة إلا على ملذات النفس وأهوائها .

وفي يوم اليرموك كان من بين أربعمئة بايعوا الله تعالى على الموت واستشهد رضي الله تعالى عنه لتكون كلمة الله هي العليا .

obeikandi.com

١١ - هو أحلم من ذلك وأكرم

برز من بني جمح في إيذاء المسلمين زعيمان من هذا البطن من قريش : أبي وأمية ابنا خلف بن وهب وورث عنهما صفوان بن أمية هذه التركة الكريهة.

كان أبي بن خلف يقاطع من يجلس إلى رسول الله ﷺ قبل الهجرة ، و يغلظ عليه ، جلس صديقه الحميم : عقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو بن أمية ، ذات مرة إلى رسول الله ﷺ ، وسمع القرآن الكريم فبلغ ذلك أبي بن خلف ، فأتى عقبة فقال : ألم يبلغني أنك جالست محمداً أو سمعت منه وعاهد عقبة أن يبالغ في إذاية رسول الله ﷺ ليكون ذلك دليلاً على رجوعه عن الجلوس مرة ثانية . أهل الباطل لا يلقي بعضهم إلى بعض إلا ما يزيدهم ثبورا وإمعانا في الغواية .

وكان يطمع في أن يقتل رسول الله ﷺ ، وأعد لذلك فرسا اسمه العوذ ، فكان إذا لقي رسول الله ﷺ قال : يا محمد ، إن عندي العوذ أعلفه كل يوم فرقا^(١) من ذرة أفتلك عليه . فيقول ﷺ " بل أنا أفتلك إن شاء الله " .

ومشى أبي بن خلف إلى رسول الله ﷺ وهو يبغى تشكيك الناس في البعث ، وقد جاء معه بعظم بال ، أصبح هشا من طول الزمن . فقال (يا محمد ، أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعد ما أرم !) ثم فته في يده ونفخه نحو رسول الله ﷺ . فقال ﷺ { نعم — أنا أقول ذلك } يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلقٍ عليم^(٢) { فبهت الذي كفر ولم يجر جوابا .

لم يكن أبي بن خلف مستقهماً ، ولا طالبا الوصول إلى الحقيقة ، بل كان مكابراً ، معانداً ، مصراً على الكفر ، ومثل هذا لا يستفيد من الأدلة والبراهين

(١) مكيال يسع ستة عشر مناً .

(٢) من الآية ٧٩ سورة يس .

والحجج ، بل إنه كلما جيء له بدليل ازداد عتوا ونفورا وتمسكا بما عليه من الباطل ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا . وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا . حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ٢٥ ﴾ سورة الأنعام .

لقد طلب أمثال هؤلاء من رسول الله ﷺ الإتيان بما حدثتهم به أنفسهم على وجه العناد لا على وجه الاقتناع (فلهذا لم يجابوا إلى كثير مما سألوا لعلم الله سبحانه أنهم لو عاينوا أو شاهدوا ما أرادوا لاستمروا في طغيانهم يلهون ولظلموا في غيهم وضلالهم يترددون^(١) فقد رأوا من دلائل النبوة ما لم يترك شبهة لشاك ولا وجها لطالب حق ، وكان سؤالهم ما سألوه عن جهل بحكمة الله تعالى في امتحان الخلق وتعبدهم بتصديق الرسل ، وأن يكون إيمانهم عن نظر وتفكير في الأدلة فيقع الثواب على حسب الجهد المبذول ، ولو كشف الغطاء عن البشر ، وحصل لهم العلم الضروري بالنبوات ، إذن لألغينا وجود الإنسان وجردناه من خصائص تكوينه ، ولطالبا أن يكون البشر ملائكة : فطبيعة الإنسان تقتضي منه التفكير والتدبر ليهتدي إلى الحق وقد جاء ﷺ فبين للبشر جميعا ما اختلفوا فيه ، وقرر لهم شريعة الله تعالى ، وبينها البيان الذي ليس وراءه مرمى ، فكل مطلب تعجيزي بعد ذلك لا يصدر عن سلامة قصد ، بل إن صاحبه كلما أجيب إلى مطلب استدعاه العجب إلى طلب آخر وهكذا — ولا جرم أن المعاند المكابر ، لا يقتنع ببرهان ولا يهتدي بدليل بعد أن جاءته آيات الله البيّنات فأغرض عنها بصيرته ، وسد دونها سمعه ، وحجب عنها وعيه ، فلو جئته بكل دليل لا يسلم أبدا ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ

(١) السيرة الشامية للإمام الحافظ محمد يوسف الصالحي الشامي الشافعي ت ٩٤٢هـ (سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ﷺ) في ط ١ ورقة ٢٨٠ وقد تشرفنا باقتراح تحقيق هذه الموسوعة في السيرة النبوية ووافق المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة على تحقيقها ونشرها وقد صدر منها حتى ١٤١٢هـ عشرة أجزاء .

فَبَايَ حَدِيثَ بَغْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ - ٦ - وَيَلْ لَكَ أَفَاكَ أَثِيم - ٧ - يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنْثَلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يَصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرُهُ بِعَذَابٍ أَلِيم - ٨ - وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوءًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِين - ٩ ﴿ سورة الجاثية . وجميع من سلكوا هذا المسلك ماتوا مشركين .

جاء أبي بن خلف ، وزمعة بن الأسود ، والنضر بن الحارث ، والأسود بن عبد يغوث ، والعاصي بن وائل فقالوا (لو جُعِلَ معك يا محمد ملك يحدث عنك الناس ويرى معك !) وقد رد القرآن العظيم على أمثال هذه الاعتراضات قال تعالى ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ، وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ، ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ - ٨ - وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ - ٩ ﴾ سورة الأنعام .

وفي غزوة أحد كان أبي بن خلف قد أعد لأمة^(١) تسترهِ من رأسه إلى أخص قدميه ، ليكون في مأمن من أية إصابة ، وركب العود^(٢) ، واتجه إلى شِعب في جبل أحد كان يقف فيه رسول الله ﷺ في جماعة من الصحب رضوان الله تعالى عليهم ، فأقبل يقول أين هذا الذي يزعم أنه نبي ، فليبرز لي ، فإنه إن كان نبيا قتلني ، فقال الصحب رضوان الله تعالى عليهم (أيعطف عليه رجل منا يا رسول الله) فقال ﷺ (دعوه) . فلما دنا ابن خلف ، تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة ، فلما أخذها (انتفض بها انتفاضة تطايرنا عنه تطاير الوبر من ظهر البعير إذا انتفض) ثم استقبله ، وقد أبصر ﷺ ترقوته من سايغة^(٣) الدرع ، فطعنه طعنة أرسلته من على فرسه يتقلب من شدتها على الأرض وهو يخور خوار الثور ، وقد أصاب طرف الحربة ما ظهر من ترقوته ، وكاد أن يتحطم من قوة الصدمة ، فانقلب منهزما إلى قومه وهو يقول (قتلني محمد) فقالوا له (ذهب فؤادك والله إن يكن بك بأس)

(١) لباس لحرب .

(٢) اسم فرسه .

(٣) ما يغطي العنق من الدرع .

فأجابهم مؤكداً ما قال (إنه قد قال لي بمكة أنا أقتلك والله لو بصق علي لقتلني^(١)) فتأمل ما يفعله الجمود والعناد بالنفس ، إذ يعلم أبي تمام العلم صدقه ﷺ ومع ذلك لا يؤمن . ومات عدو الله بسرف^(٢) أثناء عودة المشركين إلى مكة .

وفي مصرع أبي بن خلف يقول حسان بن ثابت :

ألا من مبلغ عني أبيعاً فقد ألقيت في سحق السعير
تُمْنِي بالضلالة من بعيد وتُفْسِمُ إن قدرت على النذور
تُمْنِيك الأماني من بعيد وقول الكفر يرجع في غرور
فقد لاقتك طعنة ذي حفاظ كريم البيت ليس بذئ فجور
له فضل على الأحياء طرا إذا نابت ملومات الأمور

أما أخوه أمية وكان يقال له الغطريف وهو الذي تولى تعذيب بلال بن رباح رضي الله تعالى عنه ، فكان يخرجهم إذا حميت الرمال في الظهرية ويطردهم في بطحاء مكة ويأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره أو يلبسه دروع الحديد كي يتعذب بحرارتها ، ثم يقول له . لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى فيجيبه بلال وهو في ذلك البلاء - " أحد . أحد " .

ويمر ورقة بن نوفل على أمية بن خلف وهو يصنع ببال ما يصنع فيقول (أحلف بالله لئن قتلتهموه على هذا لأتخذنه حنانا) .

(١) في تفسير المنار { لم يقتل النبي ﷺ في حياته أحدا سواه ، لأنه على كونه كان أشجع الناس

وأثبتهم في مواقف القتال ، كان أرحمهم وأرأفهم ، ولذلك كان يكتفي بالتدبير والتشبيث ،

والدفاع عن نفسه ، ولعله لو رأى مندوحة عن قتل أبي لما قتله } -ج- ص ١٠٣ : ١٠٤

ونقول أن أبيًا قد حكم على نفسه بالقتل إذ علق صحة النبوة بقتله .

(٢) على ستة أميال من مكة .

وكانوا كلما زادوا في التكيل به والضغط عليه ليتفوه بكلمة الكفر يقول " إن لسانی لا یحسنه " وأسلموه للولدان یهزأون به ویستعرضونه فی شعاب مکه . وجاء الصديق الأكبر ذات يوم فقال لأمية بن خلف " ألا تتقي الله في هذا المسكين ! حتى متى ! قال " أنت أفسدته فأنقذه مما ترى " وفرح أبو بكر لإقبال أمية على بيعه واشتراه منه بخمس أوراق من ذهب أو تسع . وأراد أمية أن ينغص الصفقة بعد تمامها على الصديق فقال : " لو أبيت إلا أوقية لبعناك " فقتله الصديق غيظا حين أجاب " لو أبيتم إلا مائة لاشتريته " وأعتقه . فكان عمر رضي الله عنه إذا ذكر ذلك يقول (أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا) يعني بلالا .

وكان أمية شديد الكبر والصلف. روى ابن إسحق عن عبد الرحمن بن عوف أنه قال : كان أمية بن خلف لي صديقا بمكة ، وكان اسمي عبد عمرو ، فتسميت حين أسلمت عبدالرحمن^(١) ونحن بمكة ، فكان يلقاني إذ نحن بمكة فيقول : يا عبد عمرو ، أرغبت عن اسم سماكه أبواك ؟ فأقول : نعم فيقول : "إني لا أعرف الرحمن ! فاجعل بيني وبينك شيئا أدعوك به ، أما أنت فلا تجيبني باسمك الأول ، وأما أنا فلا أدعوك بما لا أعرف ! فكان إذا دعاني : يا عبد عمرو ، لم أجبه . قال فقلت له : يا أبا علي ، أجعل ما شئت . قال : فأنت عبد الإله . قال : فقلت نعم . قال : فكنت إذا مررت به قال : يا عبد الإله ، فأجيبه ، فأحدث معه ."

وكان أمية حريصا على إيذاء المسلمين فلم يفته مجلس من مجالس الشر إلا وقد حضره ، وكان يهمز ويلمز كلما مر به رسول الله ﷺ .

(١) الذي سماه عبدالرحمن هو رسول الله ﷺ . ونحن نرى أن محوه وإلغاءه صلوات الله وسلامه عليه للأسماء ذات المدلولات الجاهلية من دلائل نبوته ﷺ والذي يتتبع ذلك يعلم انفراده صلوات الله وسلامه عليه في تقرير التأديب الشامل في الأسماء .

ولما اشتد أذاه لابن عمه عثمان بن مظعون الجمحي وكان من السابقين الأولين في الإسلام ، قال موبخا له :

أخرجتني من بطن مكة أمنا^(١) وأسكنتني في صرح بيضاء^(٢) تقزع^(٣)
تريش نبالا لا يواتيك ريشها وتبزي سهامها ريشها لك أجمع
وحاربت أقواما كراما أعزة وأهلك أقواما بهم كنت تفزع^(٤)
ستعلم إن نابتك يوما ملمة وأسلمك الأوباش ما كنت تصنع

وفي أثناء المعركة (بدر) رأى عبد الرحمن بن عوف ومعه أذراع يحملها فلما رآه قال : يا عبد عمرو! قال عبدالرحمن " فلم أجبه — فقال : يا عبد الإله فقلت : نعم — قال : هل لك فيّ ، فأنا خير لك من هذه الأذراع التي معك " قال : قلت : نعم . ها الله ذا^(٥) . قال فطرح الأذراع من يدي ، وأخذت بيده ويد ابنه ، فرآه بلال : فصرخ يقول رأس الكفر أمية بن خلف ، لا نجوت إن نجا. فقال له عبدالرحمن : أبأسيري ! قال بلال : يا أنصار الله رأس الكفر أمية بن خلف . وكان بلال قد لاحظ أن معظم المهاجرين يفضلون أسر أعدائهم حتى كره ذلك سعد بن معاذ الأشهل سيد الأوس ، ولذا استغاث بلال بالأنصار ، وسرعان ما أحاطوا بهم إحاطة السوار بالمعصم فقتلوا أمية وابنه. وفي ذلك يقول عبدالرحمن بن عوف " يرحم الله بلالا ذهب أدراعي ، وفجعني بأسيري " .

(٢) صرح بيضاء — مكان بالحبشة .

(٣) تكره .

(١) يعني هجرته إلى الحبشة .

(٤) تنتصر وتلوذ .

(٥) أي أقسم على هذا .

وورث صفوان عن أبيه : الصد عن سبيل الله تعالى ، وهو لثرائه أطعم جيش قريش يوماً حين خرجت في خيلائها تقصد بدرًا . وحين تعبأت قريش لغزوة أحد كلم قريبه الشاعر أبا عزة عمرو بن عبد الله بن عمير الجمحي ليحض على قتال المسلمين ، وكان أبو عزة ممن أسرف في وقعة بدر فمن رسول الله ﷺ بفك أسره بعد أن أبرم عليه عهداً بعدم التحريض على قتال المسلمين . ومازال به صفوان حتى أغراه على نقض عهده ، فوجهه إلى بني كنانة يستثيرهم .

ولم يصبر صفوان حتى تخرج قريش للغزو بل أراد أن ينفرد بارتكاب جريمة الاغتيال : إذ اتفق مع قريبه عمير بن وهب على اغتيال رسول الله ﷺ ، وأغراه بقضاء ديونه وضمن له رعاية شأن بيته ، وكان يقول لقريش " أبشروا بفتح ينسيكم وقعة بدر ! " ولكن عمير بن وهب عاد مسلماً متفانياً في الدعوة إلى الله عز وجل ، عاد محمدياً لا قرشياً كما تبغي قريش .

وكان صفوان من رؤوس قريش الذين خرجوا لقتال المسلمين في أحد وقد خرجت معه زوجته برزة بنت مسعود الثقفية ، وقاد المشاة في هذه المعركة العنيفة .

ولما أجهد قريش الحصار الاقتصادي الذي أعلنه المسلمون على مكة اجتمع المأ من قريش لتدبير خطة لفك هذا الحصار فقال صفوان ((إن محمداً وأصحابه قد عوروا علينا متجرنا فما ندري كيف نصنع بأصحابه وهم لا يبرحون الساحل ، وأهل الساحل قد وادعهم - يقصد رسول الله ﷺ - ودخل عامتهم معه فما ندري أين نسلك ! وإن أقمنا في دارنا هذه أكلنا رؤوس أموالنا فلم يكن لها من بقاء ! وإنما حياتنا بمكة : على التجارة إلى الشام في

الصيف وإلى الحبشة واليمن في الشتاء ، فأشار عليه الأسود بن المطلب بقوله
تتكب^(١) الطريق إلى الساحل وخذ طريق العراق ، فوافقوا على هذا لاعتقادهم
أن هذا الطريق لن يطرقه المسلمون.))

وتجهز أبو سفيان وصفوان وحويطب بن عبد العزى وخرجوا في قافلة كبيرة
يطلبون العراق ، وبلغ الخبر المسلمين ، فأرسل رسول الله ﷺ زيد بن حارثة
على رأس مائة رجل لأسر القافلة ، فلحقها زيد عند ماء يقال له الكدر^(٢)
فهاجمها وهرب رجالها وغنمها ، وبذلك فشلت خطة فك الحصار .

ووثبت بنو لحيان من هذيل على بعث من المسلمين تبلغ عدتهم عشرة رجال
عند ماء يقال له الرجيع لبييعوهم لقريش في مكة فدافعوا عن أنفسهم حتى
قتلوا وأسر منهم خبيب بن عدي وزيد بن الدثنة فقدموا بهما مكة فباعوهما من
قريش بأسيرين من هذيل ، فابتاع صفوان بن أمية زيد بن الدثنة ، وبعث به
مع مولى له يقال له نسطاس ، فخرج به إلى التنعيم^(٣) وخرج أبو سفيان في
جماعة من قريش فشهدوا قتله رضي الله تعالى عنه .

ولما أطل جيش رسول الله ﷺ مكة عام الفتح ، عز على صفوان أن تغلب
قريش وتستسلم ، فاجتمع مع عكرمة بن أبي جهل وسهل بن عمرو وقرروا
أن يجروا قريشا للقتال ، وانضم إليهم جماعة من بني بكر يتزعمهم حماس بن
قيس ، إلا أن خالد بن الوليد شنت شملهم وهرب صفوان بن أمية إلى جدة .
وكان صفوان من بين الذين أهدرت دماؤهم . فجاء عمرو بن وهب إلى

(١) تحاشى .

(٢) شمال شرق المدينة بنحو مائة وعشرين كيلومترا .

(٣) بين علمي التنعيم وباب العمرة بالحرم ٦,١٤ كم ، وذلك ليقتله خارج حدود الحرم .

رسول الله ﷺ فقال (يا نبي الله إن صفوان بن أمية سيد قومه وقد خرج هارباً منك لينقذ^(١) نفسه في البحر فأمنه صلى الله عليك) فقال ﷺ : هو أمن ، قال : " يا رسول الله فاعطني آية يعرف بها أمانك ، فأعطاه علامة يعرفه بها .

فخرج عمير حتى أدركه قبل إبحاره . فقال : يا صفوان ، فذاك أبي وأمي الله الله في نفسك أن تهلكها ، فهذا أمان رسول الله ﷺ قد جئتكم به .

قال صفوان : ويحك ! أعزب عني فلا تكلمني .

قال : أي صفوان . فذاك أبي وأمي ، أفضل الناس ، وأبر الناس وأحلم الناس ، وخير الناس ، وابن عمك ، عزه عذك ، وشرفه شرفك ، ومملكه ملكك .

قال صفوان : إنني أخافه على نفسي .

قال عمير : هو أحلم من ذلك وأكرم .

واستطاع عمير أن يقنع صفوان بالعودة معه .

ولنا أن نتأمل ماذا تفعل صحبة رسول الله ﷺ بعمير ، فعمير قبل إسلامه كان يجلس إلى ابن عمه صفوان في الحجر أمام الكعبة يتأمران على رسول الله ﷺ . والآن يتكبد عمير المشاق والسفر ويبتلع للحاق بصفوان بعد أن حصل له على الأمان ، كل ذلك لينقذ صفوان من شركه ليلحق بزمرة المؤمنين . وقد رده في البداية رداً جافاً : إذ تذكر هذه المؤامرة التي كانت بينهما وكيف نقضها عمير ، فلماذا لا يكون قد جاء ليمكر به . ولكن عميراً يصرف

(١) يريد ليركب البحر مهاجراً .

صفوان بحسن سياسته عن التفكير فيه ، هذا التفكير الذي يؤدي به إلى الشك في حقيقة حضوره ، ثم يذكره بما عهده في رسول الله ﷺ من مكارم الأخلاق التي يعلمها الجميع . فلكم عفا عمن يريد قتله وعمن آذاه . ولكن صفوان تردد حين طافت بمخيلته ذكريات ماضية وماضي والده وعمه فاستعظم ما كان . فقال لعمير : إني أخافه على نفسي . فعلم عمير ما يجول بخاطره وذكره بأن عفو رسول الله ﷺ أعلى مما يدور بخلده أيضا ، وهنا اطمأنت نفس صفوان ، فلم ير للرحيل من فائدة ورجع مع عمير .

فلما جاء رسول الله ﷺ ^(١) قال صفوان : إن هذا يزعم أنك قد أمنتني؟

فقال ﷺ "صدق" فقال صفوان : فاجعلني فيه بالخيار شهرين ، فقال ﷺ " أنت بالخيار فيه أربعة أشهر " .

ورأى صفوان بعينه سقوط الأصنام : فالعزى التي تعظمها قريش وكنانة ومضسر كلها ، قد هدمها خالد بن الوليد — وسواع — صنم هذيل — هدمه عمرو بن العاص — ومناة بالمشلل قد هدمها سعد بن زيد . وقبلها كلها هبل قد أزيل من الكعبة مع فرقة الأصنام التي تحيط بها .

واجتمعت هوازن وثقيف لقتال المسلمين وعبأوا أنفسهم تعبئة لم يسمع بمثلها . فأمر رسول الله ﷺ المسلمين بالتعبئة . وأرسل إلى صفوان فقال ﷺ : يا أبا أمية ، أعرنا سلاحك نلق فيه عدونا غدا .

فقال صفوان : أغصبا يا محمد ؟

(١) تأمل الفرق بين استقباله صلوات الله وسلامه عليه لعكرمة وبين استقباله لصفوان لاختلاف نية كل منهما .

فقال ﷺ : بل عارية . ومضمونة ، حتى نؤديها إليك .

فقال صفوان : ليس بهذا بأس .

فجاء بمائة درع بما يكفيها من السلاح ، ويقال أنه حملها للمسلمين أيضا.

ولما استقبل المسلمون وادي حنين انحطت القبائل عليهم فجأة ففرق المسلمون عن رسول الله ﷺ ولم يثبت سوى نفر من المهاجرين والأنصار .

فصاح كلداء بن الحنبل وهو أخو صفوان لأمه : ألا بطل السحر اليوم .

فقال صفوان : اسكت فض الله فاك فوالله لأن يرئني (يسودني) رجل من قریش أحب إلي من أن يرئني رجل من هوازن .

ثم نادى منادي رسول الله ﷺ في المسلمين بالثبات والعودة للقتال ، فعادوا كأثبت ما يكون وشتتوا شمل هوازن وانهزمت تقيف إلى الطائف تتحصن بها.

ثم جمعت مغانم حنين تحت حراسة مسعود بن عمرو الغفاري في الجعرانة وواصل المسلمون الزحف إلى الطائف ، فحاصروها ، ثم رفع رسول الله ﷺ الحصار عنها وعاد إلى الجعرانة^(١) حيث قسم غنائم حنين.

وشهد صفوان رسول الله ﷺ يقسم الغنائم فلا يستأثر بشيء ولا يخص أصحابه بأكثر من غيرهم بل إنه قد أعطى مسلمة الفتح أكثر مما أعطى للمهاجرين والأنصار وذلك تأليفا لقلوب مسلمة الفتح فكان يعطي الواحد منهم مائة من الإبل ؛ رأى صفوان أمراً لم تجر به عادة العرب ذلك أن التقاليد العربية تعطي للأمير حقوقاً يتميز بها عن غيره ، يجمعها قول الشاعر :

لك المرباع منها والصفايا وحكمك والنشيطه والفضول

(١) موضع بين مكة والطائف على مسيرة ٤٠ كلم من مكة .

فالمرباع ربع الغنيمة ، والصفى : هو ما يختاره الأمير لنفسه قبل قسمة الغنائم ، والنشيط ما أصاب الرئيس في الطريق قبل المعركة ، والفضول : ما فضل من الغنائم مما لا تصح قسمته على عدد المقاتلين . أخرج ابن سعد عن عبدالله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما : قال : شهد صفوان بن أمية حنيننا مع النبي ﷺ و صفوان كافر . ثم رجع إلى الجعرانة ، فبينما رسول الله ﷺ يسير في الغنائم ينظر إليها ومعه صفوان ، جعل صفوان ينظر إلى شعب مليء نعمًا وشاة ورعاء ، فأدام النظر إليه فقال له ﷺ : يا أبا وهب يعجبك هذا الشعب؟ قال : نعم . قال : هو لك وما فيه .

واستقر في قلب صفوان أن هذا العطاء لا يكون من رجل مهما كان كريما ، بل هو عطاء لا تطيقه إلا النبوة وفي ذلك يقول (أشهد ما طابت بهذا إلا نفس نبي) .

وأدى رسول الله ﷺ إلى صفوان أمانته وأعطاه حتى رضي : وأخذ صفوان يشهد صفات النبوة عن كثب، إن قرشا كانت تقدر القوة ، وقد رأى بعينه كيف بدد المهاجرون والأنصار شمل هوازن وثقيف ، بالرغم من انهزام مسلمة الفتح .. وهاهو رسول الله ﷺ مع قدرته عليه وتمكنه منه يترفق به ويعطيه حتى يرضيه ويرد إليه أمانته ، وله الحق كل الحق لو صادر أمواله بل وحياته .

روى مسلم والترمذي من طريق سعيد بن المسيب عن صفوان بن أمية أنه قال (والله لقد أعطاني النبي ﷺ وأنه لأبغض الناس إلي فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلي) ولم يحتج صفوان إلى مهلة ، فقد كان النور المحمدي أسرع إليه من نهايتها .

وأراد صفوان أن يحظى بشرف الهجرة . فغادر مكة إلى المدينة ونزل على العباس بن عبدالمطلب . فاستدعاه رسول الله ﷺ ، فسأله على من نزلت ؟ فأجاب صفوان : على العباس . فقال ﷺ " ذلك أبر قريش بقريش ، ارجع أبا وهب فإنه لا هجرة بعد الفتح . فمن لأباطح مكة ؟ ، فرجع صفوان فأقام بمكة حتى مات بها سنة ٣٥هـ ، وله من الأولاد عبدالله وأميه ويعلي وعبدالرحمن والأخير أمه أم حبيب أميمة بنت أبي سفيان شقيقة السيدة أم حبيبة ، أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها .



obeikandi.com

١٢- " ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ "

اجتمعت هوازن وثقيف إلى مالك بن عوف النضري، فخرجوا بأموالهم ونسائهم وأبنائهم لحرب رسول الله ﷺ ، ولما اعترض دريد بن الصمة على خروج الظعن والأموال ، نادى مالك بن عوف : " والله لتطيعنني يا معشر هوازن أو لأنكن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري ، وكان مالك يرى أن خروج المقاتلين في أهلهم وأموالهم أدعى للاستبسال والقتال حتى الموت .

وبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج في اثني عشر ألفا للقائهم وأستعمل على مكة عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية ، وقيل استعمله ﷺ بعد عودته من الطائف.

وكان عماد الجيش الإسلامي من المهاجرين وعددهم سبعمائة ، والأنصار وعددهم أربعة آلاف والباقون من القبائل التي انضمت إلى جيش الفتح قبل الفتح وبعده ويجب ألا يفوتنا أن غير المهاجرين والأنصار لم يألفوا النظام الحربي الإسلامي الذي درب رسول الله ﷺ عليه أصحابه فالذين لم يشتركوا مع المسلمين في القتال قبل الفتح كانوا يسировون في القتال على طريقتهم ، ولم يعرفوا بعد طريقة المهاجرين والأنصار في الحرب .

وكان من الضروري السماح لأهل مكة بالخروج : وقد خرج منهم ألفان ، ونقول من الضروري لأن مكة قد فتحت حديثا ، وهذا الإجراء لازم لتأمينها ، بل إن استعارة مائة درع بأسلحتها من صفوان بن أمية ، وكان لم يدخل في الإسلام بعد ، له مغزى أكثر من مد المسلمين بالسلاح ، فهو إجراء ضروري لتجريد أهل مكة من السلاح تأمينا لها .

فكانت الهزيمة في بداية المعركة لابد منها ، حتى إذا ما انفرد المهاجرون والأنصار في الميدان تم النصر الساحق .

استقبل المسلمون وادي حنين ، وفي ليلة المعركة جمع مالك بن عوف النَّضري قواده وقال لهم ((إن محمداً لم يقاتل قوماً قط قبل هذه المرة ، وإنما كان يلقي قوماً لا علم لهم بالحرب فيظهر عليهم ، فإذا كان السَّحَرُ فضعوا مواشيكم ونسائكم وأبناءكم من وراءكم ، ثم تكون الحملة منكم واكسروا أجفان سيوفكم فتلقونه بعشرين ألف سيف ، واحملوا حملة رجل واحد واعلموا أن الحملة لمن حمل أولاً ، وكمنا للمسلمين في شعاب الوادي وأحنائه ومضايقه)) .

وفي عماية^(١) الصبح انحطت كتائب العدو على المسلمين فانفضوا لا يلوي أحد على أحد . وثبت رسول الله ﷺ في نفر من الصحب ، وهو يكر على العدو راكبا بغلة إعلانا للمسلمين لو تذكروا بعدم الانهزام عنه وكان رسول الله ﷺ يعلن عن نفسه ويقول ((أنا النبي لا كذب أنا ابن عبدالمطلب)) وأمر مناديه أن ينادي الأنصار وأصحاب الشجرة : يذكرهم ببيعة الرضوان . والآنصار كما مر بنا هم الأكثر عدداً فإذا ما عادوا عاد المهاجرون المنهزمون . ولم يكدهؤلاء يصلهم صوت منادي رسول الله ﷺ حتى عادوا سراعاً ، فكان أحدهم لا ينتظر راحلته حتى يثنيها فيأخذ عدة الحرب ويلقي بنفسه من فوقها ويرجع ركضاً ، ويؤم الصوت ، حتى تكونت نواة جيش النصر ولم يلبث المسلمون أن تحولوا إلى الهجوم وأحرزوا نصراً ساحقاً ، إذ بلغ عدد الأسرى ستة آلاف كما غنموا أموال هوازن وتقيف ، وهرب مالك بن عوف فيما معه ، وتحصنت تقيف بالطائف .

(١) أي قبل الفجر .

ولم يقسم رسول الله ﷺ الغنائم لعل المنكسرين يسلموا فيرد عليهم الأسرى فأخّر توزيعها حتى يرجع من الطائف ليعطيهم ﷺ المهلة الكافية للرجوع — فترك ﷺ الأسرى والأموال في الجعرانة تحت حراسة مسعود بن عمرو الغفاري ، واتجه إلى الطائف فحاصرها حوالي العشرين يوماً — ولم هناك ثمة داع للإقامة عليها حتى فتّحها ، بل إن الإقامة لهذا الغرض قد تطول ، وفي هذا ما فيه من الخطر على المسلمين في باقي بلاد العرب ، وقد تم المقصود من الحصار وهو إرهاب أهل الطائف حتى لا يحدث التقفيون أنفسهم أو من لم يسلم بعد من العرب بأن المسلمين قد رجعوا عن تتبعهم خوفاً منهم فيتجمعوا للقتال مرة أخرى ، ثم إن انتشار الإسلام بين القبائل المحيطة بتقيف، وتطهير بلاد العرب من الأصنام ، مما يجعل تسليم تقيف ودخولها في الإسلام أمراً مقضياً ، كل هذا كان من بين دواعي رفع الحصار عن الطائف.

ولما انصرف رسول الله ﷺ عن تقيف قال له رجل من أصحابه « يا رسول الله ادع عليهم فقال ﷺ " الله اهد تقيفاً وأت بهم " » .

وقد كان ، إذ أرسلوا وفدهم فيما بعد إلى المدينة وأسلموا جميعاً.

ولما وصل رسول الله ﷺ إلى الجعرانة ، جاءه وفد هوازن وكانت عدته أربعة عشر رجلاً قد أسلموا وأعلنوا إسلام من وراءهم من قومهم — فقالوا ((يا رسول الله ، إنا أهل وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك ، فآمننّ علينا من الله عليك ، وقام خطيبهم أبو صرد زهير بن صرد من بني سعد (وإليهم تنتمي مرضعة رسول الله ﷺ السيدة حليلة بنت أبي ذؤيب عبد الله بن الحارث وزوجها الحارث بن عبد العزى) فقال : يا رسول الله إنما في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك وإن أبعدهن قريب منك حضنك في حجرهن ، وأرضعنك بثديهن وتوركنك على أوراكن وأنت خير المكفولين .

فقال لهم صلوات الله وسلامه عليه ((معي من ترون وأحب الحديث إليّ
أصدقه فاختاروا إحدى الطائفتين إما السبي وإما المال وقد كنت استأنيت^(١)
بكم)) يشير ﷺ إلى أنه أخر القسمة ليحضرُوا فأبطأوا فقالوا : " يا رسول الله ،
خيرتنا بين أموالنا وأحسابنا ، بل ترد إلينا نساءنا وأبناءنا فهم أحب إلينا ."
فقام ﷺ في الناس فأثنى على الله تعالى بما هو أهله ثم قال ((أما بعد ،
إخوانكم قد جاءونا تائبين وإني قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم فمن أحب منكم
أن يطيب ذلك فليفعل ، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه
من أول ما يفيء الله علينا فليفعل)) فقال الناس " قد طبنا بذلك يا رسول الله "
فقال ﷺ ((إنا لا ندري من أذن منكم في ذلك ممن لم يأذن فارجعوا حتى
يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم)) .

فرجع الناس فكلّموا عرفاءهم في ذلك ثم عادوا . ولما صلى رسول الله ﷺ
الظهر قام وفد هوأزن فتكلّموا فيما جاءوا لأجله ، فأعطاهم ﷺ ما كان له
ولبني عبدالمطلب . فقال المهاجرون : وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ . وقال
الأنصار : وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ . وقال الأقرع بن حابس : أما أنا
وبنو تميم فلا . وقال عيينة بن حصن : أما أنا وبنو فزارة فلا — وقال عباس
بن مرداس : أما أنا وبنو سليم فلا — فقالت بنو سليم : بلى ، ما كان لنا فهو
لرسول الله ﷺ فقال عباس بن مرداس " وهنتموني^(٢) " وما زال رسول الله ﷺ
حتى رضي المعارضون وردوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم .

فتدبر رعاك الله تعالى كيف عامل سيد العالمين ﷺ هؤلاء الذين بايعوا بعضهم
لقتاله حتى الموت. وزاد ﷺ بتوجيه أصحابه ليفعلوا مثلما فعل .

(١) أخرت القسمة لأجلكم . هذه من معجزاته ﷺ فما أخرها إلا لعلمه بإذنه تعالى أنهم سيأتون

بإذنه تعالى .

(٢) تخليتم عني .

١٣ - " ما إن رأيت ولا سمعت بمثله "

لما أراد وفد هوازن الانصراف : قال لهم رسول الله ﷺ ((أخبروا مالكا أنه إن أتاني مسلما رددت عليه أهله وماله ، وأعطيتهم مائة من الإبل)) فتأمل ببرك شدة حرصه ﷺ على إسلام من عبأ القبائل بالأمس لقتاله : فهو يعده بالصفح ورد الأهل والمال بل ويعطيه ما يرضيه لو آمن وأنقذ نفسه من الشرك بالله تعالى .

وأخبر الوفد مالك بن عوف النضري بما قاله ﷺ ، فدخل الإسلام في قلبه لما رآه من انفراده ﷺ بالكلمات الخلقية التي لا يطبق مثلها بشر ، ولكنه خشي أن تعلم تقيف بالأمر فتحبسه عن الرحيل ، فأعد عدته للهرب وجهاز راحلة تنتظره خارج الطائف ، ولما تم ذلك خرج ليلا على فرسه إلى موضع الراحلة، ولحق برسول الله ﷺ فأنجز ما وعده وفي ذلك يقول :

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله في الناس كلهم بمثل محمد
أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتدى ومتى تشأ يخبرك عما في غد
وإذا الكتيبة عردت أنيابها^(١) بالسهمري وضرب كل مهند^(٢)
فكانه ليث على أشباله وسط الهباءة^(٣) خادر^(٤) في مرصد^(٥)

(٢) الرمح الصلب .

(١) عرضت أنياب الإبل إذا اشتدت : يريد إذا اشتدت الحرب واشتدت .

(٣) أرض لغطفان أسداها ضاربة .

(٤) مقيم في عرينه .

(٥) مترصد ومتهيئ للوثوب ، والليث أشد ما يكون بأسا وسط أشباله .

واستعمله رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه من ثمالة وسلمة وفهم ، فكان
يقاتل بهم تقيفا ، بعد أن كان يقاتل المسلمين ، فكان لا يخرج لهم سرح
إلا أغار عليه حتى ضيق عليهم ، وفي ذلك يقول أبو محجن مالك بن حبيب
ابن عمرو النقفى :

هابت الأعداء جانبنا	ثم تغزونا بنو سلمة
وأتانا مالك بهم	ناقضا للعهد والحرمة
وأتوننا في منازلنا	ولقد كسنا أولي نقمة

